

حوار حول عبد الناصر



محمد عوده
روبرت ستيفنس

حوار حول عبد الناصر

محمد عوده

روبرت ستيفنس



دار هذا الحوار منذ عامين خارج مصر
.. ونهديه للذين جعلوا نشـــــره
داخـــل مصــــر ممكنـــا ..

« محمد عودة »

صناع التاريخ فى القرن العشرين

عبد الناصر بعد ١٠ سنوات

(روبرت ستيفنس)

ترك عبد الناصر بصماته على عشرين عاما من تاريخ مصر ومن تاريخ العرب وتاريخ العالم ، وهو قد قاوم الاستعمار وامتد بافقه واهتمامه الى البلاد التى تحررت حديثا فى العالم الثالث ، وقد مجده البعض كبطل وطنى للتحرير « واتهمه الآخرون بأنه داعية للحرب ومثير للقلاقل » ..

حينما اجتمع الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة يوليو عام ١٩٥٢ لكى يقرروا مصير الملك فاروق وهل يكون النفى خارج مصر أم المحاكمة والاعدام كان رأى جمال عبد الناصر الرصين « لنتركه للتاريخ وسوف يحكم باعدامه » ٠

ولنا أن نسأل الآن ٠٠ ماذا سيكون حكم التاريخ على جمال عبد الناصر نفسه ؟ وكيف أصبحت سيرة الزعيم المصرى وكيف تغيرت بعد عشر سنوات من وفاته ؟ والى أى مدى ما زالت اراؤه وما تزال النموذج الذى قدمه ملائما وصالحا لمشاكل مصر والعالم العربى الآن ؟

وسير السياسيين العظام تماما مثل سير الكتاب والفنانين العظام تعانى عادة ذبولا وانحسارا بعد وفاتهم ٠٠ وأحيانا تعود هذه السيرة وتبعث ـ ولو جزئيا ـ فى حياة جيل آخر لم يعان من وطأة الأخطاء التى حدثت ، واتضحت له حقائق وأبعاد المشاكل التى ثارت ٠٠ ولعل هذا هو ما حدث لعبد الناصر ٠

ولا غرابة أن ينطبق هذا الأمر خاصة على الديكتاتوريين الذين استطاعوا خنق النقد أو اخفاء أخطائهم عن الرأى العام خلال حياتهم ٠ والذين كانوا يرسمون لأنفسهم صورا مثالية لم تقو على الصمود بعد وفاتهم وخاصة اذا ما قرر من يخلفهم أن يحطمها بدرجة أو بأخرى ٠

وحينما يأتى بعد القائد أو الزعيم ويخلفه واحد من رجاله المقربين ويستمد سلطته من شرعية نفس النظام مثل خروشوف وستالين أو مثل السادات وعبد الناصر فان تحطيم الصور يغدو قضية معقدة ومحرجة تماما مثل تفريغ فتيلة ، فان عليهم وهم يصلحون الأخطاء ويتخلصون من الجوانب الكريهة للنظام أن لا يورطوا أنفسهم أو يسقطوا خلال المهمة ٠

وقد قدر أنور السادات خطواته بحذر وهو يعالج قضية عبد الناصر ، وراعى فى ذلك احتياجاته السياسية عندما هاجم

ونقض بعض السياسات الأساسية لعبد الناصر ، خاصة الاشتراكية التى قال انها كانت فشلا مطبقا والوحدة العربية ثم العلاقات الوثيقة مع الاتحاد السوفيتى ، ولكن موقفه تباين من صمت مطبق يرمى الى طوى عبد الناصر وسيرته فى سجل النسيان الى تنديد غير مباشر به والى حملات هجوم عنيفة ومتقطعة فى صحافة القاهرة الموجهة ٠ وقد اقترنت هذه السياسة التى هى تصفية للناصرية بدعاوى تطوير وتدعيم الانجازات الايجابية لثورة يوليو عام ١٩٥٢ وعهد عبد الناصر ويزعم السادات أن هذا ما حققته ثورته المسماة ثورة ١٥ مايو التصحيحية وهى الانقلاب أو الانقلاب المضاد الذى قام به عام ١٩٧١ وقضى على المجموعة الناصرية بقيادة على صبرى وكانوا منافسيه الأساسيين على السلطة ٠

كان مزيجا من المدح والقدح ، على نسق مارك أنطونى فى رثاء قيصر ، وتمثل فى خطاب السادات فى الذكرى الخامسة والعشرين لثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وكان احتفالا لم ترفع فيه صورة واحدة لعبد الناصر ، ولم يعلق شعار واحد يذكر به ٠٠ وقد ألقى السادات خطابا طويلا اعترف فيه بوقوع أخطاء ومظالم كثيرة ولكنه استطرد ليقول « ولكننا جميعا نذكر الاستقلال الزائف الذى كان قائما قبل الثورة والفساد السياسى الذى كان مستشريا ، وكيف كانت التغيرات والتقلبات فى الحكومات تتم عن طريق الرشوة الضخمة ثم جاءت الثورة ولأول مرة منذ آلاف السنين يحكم مصرى هو جمال عبد الناصر عن طريق الثورة وحقق الانجازات المتلاحقة ٠٠ أعاد توزيع الثروة وقضى على الاحتكار والاستغلال وعلى الأقلية الضئيلة التى كانت مسئولة عنهما ، وأمم قناة السويس وصمد للمواجهة مع دولتين من الدول الكبرى بل وقضى على امبراطوريتين سيطرتا على العالم لقرون طويلة ، ولهذا فانه من التجنى مقارنة هذه الانجازات المجيدة بالأخطاء والانحرافات

التى ربما تكون قد حدثت ·· تماما مثل مقارنة الهرم الأكبر بحفنة من الرمال » ·

وقد طبع عبد الناصر بطابعه ما يقرب من حقبتين من تاريخ مصر والعالم العربى والعـالم عامة وترك بصماته واضحة ·· وبالنسبة للبعض كان البطل الوطنى وبالنسبة للبعض الاخر كان الديكتاتور العدوانى وداعية الحرب أو مثير القلاقل الدولية ·· وفى الحقيقة كان عبد الناصر فى نفس الوقت ثوريا وسببا من أسباب الاستقرار فى الشرق الأوسط ، وحينما كان المجتمع العربى مهددا بالانهيار وبترك الميدان خاليا للشيوعيين أو لتعصب الاخوان المسلمين أو لفاشية عسكرية وطنية ضيقة الأفق أو لفوضى عارمة ، ظهر عبد الناصر وأقام نظام حكم قوى وتقدمى الى حد ما فى أكبر دول عربية وأكثرها تطورا ، وأدى هذا الى أن معظم التغيرات التالية فى المجتمعات العربية تمت سلمية الى حد كبير ·· فيما عدا الثورة والحرب الأهلية فى اليمن التى كانت الاستثناء البارز ·

وقد كان عبد الناصر أهم رجل دولة أنجبته الصحوة العربية وكان أحد أقطاب الثورة ضد الاستعمار وهى احـدى الحركات السياسية الكبرى فى القرن العشرين ·

وكان عبد الناصر مصريا مسلما وأعلن نفسه عربيا وكان نتاج ثورة التحرر من الاستعمار ومن الامبريالية وثورة اللحـاق بالحضـارة الحديثة التى أنجبت نهـرو وماوتسى تونج ونكروما وكاسترو وهوتشى منه ، كما كان من قواها الدافعـة · وكان عبد الناصر ينتمى الى عصر بطـولى هو عصر ثورات التحـرر الوطنية ولكنـه تجـاوزه الى مرحلة اكثـر تقدما تعنى بالتغير الاجتماعى والاقتصادى والوحـدة القومية وباقامة دولة عصرية تحقق أهم ما تحقق الاسـتقلال الاقتصادى بنفس اهميـة تحقيق الاستقلال السياسى ·· وهى جوهر مشاكل العالم الثالث ·· وهى

الآن محور كفاح دول هذا العالم لاقامة نظـام اقتصادى عالمى جديد ٠

وقد ظلت مكانة عبد الناصر وسلطته راسخة وطيدة فى مصر حتى الخطأ الأكبر الذى ارتكبه بحرب عام ١٩٦٧ ، وكان قد حقق الاستقلال التام بنهاية الاحتلال البريطانى وبازاحة النظام الملكى الأجنبى الأصل ، وقد قبل استقلال السودان وأمم قناة السويس ، وبنى السد العالى وحقق الاصلاح الزراعى وبدأ برنامجا واسعا للتصنيع وللتعليم الشعبى والاصلاح الاجتماعى عامة ٠

وقد نجحت خططه نجاحا نسبيا ومتباين الدرجات ولكن حد من هذا النجاح فشله فى اقامة نظام سياسى ذو حيوية وقوة ذاتية يمكن أن يتخلص من سيطرة العسكريين ، ومن الاعتماد على الأجهزة البوليسية أو الرقابة على الصحف ، وتعثره فى تحديد النسـل وتنظيـم التزايد السـكانى السريع ، وباستمرار البطالة المتفشية والفقـر المدقع فى الريف ويتراكم دين خارجى ثقيل تم بالنفقات الضخمة التى أنفقت على القوات المسلحة ثم التدخل فى حرب اليمـن ٠

وينبغى ــ بالطبع ــ أن لا ننسى أن ضخامة مشاكل مصر الاجتماعية وعمق جذورها خاصة الفقر وتزايد السكان وقلة الموارد تجعل من الصعب أن يتوقع أحد من أى نظام حكم مهمـا كانت نواياه الحسنة أو كفاءته حلا لهذه المشاكل أو تخفيفـا جوهريا لوطأتها فى أقل من عشرين عاما ٠٠ ويستطيع عبد الناصر ــ على الأقل ــ أن يزعم لنفسه أنه قد خفف بعض المساوىء وقام بالخطوة الأولى والبداية فى طريق ايجابى بناء ٠٠ ولا تستحق اشتراكيته العربية أن يصفها السادات « بالفشل المطلق » ٠

وقد تمت اقامة السد العالى قبل وفاة عبد الناصر بأشـهر قليلة وقد تباطأت خطوات استصلاح الأراضى وكهربة الريف ، التى

كان يجب أن تصحب بناء السد العالى ، وذلك بسبب نفقات الحرب مع اسرائيل ، واستمرار الانفاق العسكرى الضخم ، وسوف يؤدى الاستغلال الكامل للسد العالى وللكهرباء التى يولدها فى النهاية الى توسع كبير فى الصناعة والزراعة وذلك مهمـا كانت الاثار الجانبية على البيئة ، وسوف يصبح ذلك ضرورة حتى توازى زيادة الانتاج الزيادة فى السكان ان لم تتجاوزها ، وقد وصلت الزيادة السكانية فى عام ١٩٧٠ الى حوالى المليون سنويا ٠

وقد حققت ثورة عام ١٩٥٢ زيادة صغيرة فى متوسط دخل الفرد فىمصر وقامت بتوزيع أكثر عدالة للثروة فى مصر ولكن المكاسب الاجتماعية تحققت عن طريق الخدمات الاجتماعية المجانية التى تطورت وارتفع مستواها أكثر مما جاءت عن طريق زيادة الدخول ٠ فقد أقيمت المدارس والمستشفيات والوحدات الصحية ومشاريع الاسكان والتأمين الاجتماعى المحدود ٠

على أن أكثر المستفيدين بين الفلاحين فى مصر وهم ٦٠٪ من السكان كانوا الفلاحين المتوسطين والمليون ونصف المليون فلاح الذين استفادوا من الاصلاح الزراعى أما الملايين من الفلاحين المعدمين أو العمال الزراعيين المتعطلين أكثر الوقت فقد كانت المكاسب طفيفة والزيادة ضئيلة فى دخولهم ٠٠ الا اذا هاجروا الى المدينة واستطاعوا أن يجدوا عملا هناك ٠

ولم يطبق فى معظم الاحوال القانون الذى حدد الأجر الأدنى للعمال الزراعيين ولكنهم استفادوا على الأقل من مشاريع الخدمات الاجتماعية الريفية العديدة خاصة فى الصحة والتعليم وشاطروا الفلاحين الأكثر حظا هذه المكاسب ٠

وقد فاز بالنصيب الأكبر من المكاسب أهل المدن من الطبقة الوسطى وعمال المصانع قليلى العدد نسبيا ٠٠ وقد بدأت مشاريع التصنيع تخطو الخطوات الأولى وتستوعب قدرا من العدد الضخم من العاطلين فى المدن ، ولكن من يحصل على عمل كان يستطيع

أن نطمئن عليه الى حد كبير ، بينما كانت قوانين تحديد الايجار ودعم أسعار الضروريات تساهم فى تخفيض نفقات المعيشة وكانت ظروف المعيشة بالنسبة لعدد كبير من سكان المدن فى القاهرة وسواها بشعة ، وقد ازدادت سوءا بتزايد النسل ثم بتدفق سيل الهجرة من الريف بحثا عن العمل ٠

وكان فشل عبد الناصر فى أن يخلف وراءه نظاما سياسيا وطيد الأركان أو حزبا سياسيا حقيقيا يرجع فى شق منه الى تردده فى أن يشاركه أحد فى السلطة ، ثم الى شكه الذى ورثه عن النظام البرلمانى السابق فاسد الأساليب الحزبية فى اطار الواقع المصرى واعتقاده أن الأحزاب لابد وأن تنتهى الى أن تصبح أدوات لقوى أجنبية سواء روسيا أم الغرب ، وان كانت الظروف أيضا قد لعبت دورا فى تحديد هذا الموقف ٠ خاصة اثر المعركة لاجلاء البريطانيين من مصر ، ثم محاولة احتواء النفوذ الأمريكى أو السوفيتى فى العالم العربى ٠٠ وأخيرا الحرب مع اسرائيل ٠

وفى عام ١٩٥٦ غادر مصر آخر جندى بريطانى وانتخب عبد الناصر رئيسا للجمهورية وكانت الظروف مهيأة والفرصة العظيمة سانحة لتحول حكمه الى الديمقراطية ، ولم يكن هناك شك فى أنه سوف يفوز فى أى إنتخابات ديمقراطية حرة ، ولكن ما لبث فى ظرف عدة أسابيع أن وجد نفسه ازاء أخطر تحـد خارجى واجهه ، فقد قررت الولايات المتحدة ثم بريطانيا سحب عرضهما بالمساهمة فى تمويل السد العالى ورد عبد الناصر بتأميم قنـاة السويس ، ووجد نفسه بين يوم وليلة فى دوامة أزمة دولية انتهت الى الحرب ، وكان لا مناص من تأجيل أى تطور ديمقراطى ٠

وقد سنحت فرص كثيرة أخرى مثل قيام الوحدة بين مصر وسوريا ، وكان يمكن تحقيق قدر أكبر من الانفراج الديمقراطى والمشاركة فى السلطة بغير تهديد لسلطة عبد الناصر ، ولكن كان ضغط الأحداث ثم تعاظم سلطة مراكز القوى خلف الستار وهم

مجموعات الضباط الذين يتزعمهم المشير عبد الحكيم عامر ·· خلقت عقبات أخرى وربما قدمت ذرائع عرقلت السير نحو نظام سياسي أكثر ديمقراطية يحل محل الاتحاد الاشتراكى العربى ، وكان تقليدا محرفا ومطبقا لنظــام الحزب الحاكم الذى أنشأه تيتو فى يوغوسلافيا ·

وبالنسبة للعالم العربى ·· فانه بالرغم من فشل الوحــدة السورية المصرية ·· وكانت أكبر محاولة جدية لاقامة الوحدة بين أى دول عربية وبالرغم من العجز عن الوصول الى حل للمشكلة الفلسطينية ـ الاسرائيلية ، وبالرغم من الشك والعداء لعبد الناصر من الحكومات العربية الأخرى ، فانه ظل الرمز الأكبر للقوميــة العربية الثورية ولطموحها نحو الاستقلال التام عن الدول الكبرى ونحو الوحــدة العربية ونحو اللحاق بالحضــارة الحديثة ونحو مجتمع أكثر عدالة ·

وبالنسبة للعالم الثالث فقد أسس عبد الناصر لنفسه مكانة رفيعة مثل تيتو ، كأحد أقطاب حركة عدم الانحياز ، ولكن التزامه العميق بمقــاومة الاســتعمار والامبريالية فى العــالم الآسيوى والافريقى أدى به الى الاعتماد المتزايد على الاتحــاد السوفيتى بينما كان الغرب هو العدو ·

وقد كان موقف عبد الناصر خلال أزمة السويس وفشل الغزو البريطانى الفرنسى سببا فى دفع حركة التحرر من الاســتعمار فيما بقى من المستعمرات البريطانية والفرنسية أو الأوربية عامة فى أفريقيا وآسيا ، وقد أدت الى الانسحاب الكامل ونهاية أى سلطة سياسية أو وجود عسكرى لبريطانيا وفرنســا فى العالم العربى ·

وقد انتهت الحرب الجزائرية باستقلال الجزائر وتحرر المغرب العربي عامة ، وتشبث البريطانيون بالبقاء لعدة سنوات أخرى فى الطرف الآخر من العالم العربى فى عدن وشبه الجزيرة العربية

ولكنهم ما لبثوا أن رحلوا عن كل شبه الجزيرة العربية والخليج عام ١٩٧١ ٠

وقد تدخلت مصر لانقاذ الجمهورية والثورة فى اليمن ولكنها دفعت ثمنا باهظا من الرجال والاموال ومن حسن نوايا الدول ازاءها ٠

وقد كان تحدى عبد الناصر للنفوذ الامريكى فى أهم معاقله فى الشرق الاوسط وهو المملكة العربية السعودية وشبه الجزيرة العربية بالتدخل فى اليمن أحد العوامل التى أدت الى كارثه عام ١٩٦٧ فى الحرب مع اسرائيل ٠ وقد كان الثمن بالنسبة لليمن نفسها مأساة شديدة الوطأة ، وان كانت قد سجلت بداية تحرر الشطر الاكبر من البلاد من نظام سياسى واقتصادى شديد التخلف والقسوة ٠

وقد تحرر اليمن الجنوبى أيضا من الحكم الاستعمارى البريطانى ومن حكم السلاطين وانتزع السلطة الثوار الوطنيون اليساريون ، وهم مدينون فى هذا والى حد كبير للمساندة المصرية وللثورة اليمنية ، ويمكن الزعم أيضا بأن الاصلاحات التى تمت بعدئذ فى العربية السعودية ، والتى طال بها الوقت وتأخرت ، كانت ثمرة لضغوط الثورة اليمنية ٠

وقد بدا لبعض الوقت أن حرب عام ١٩٦٧ قد حطمت الكثير من انجازات عبد الناصر وقضت عليها ، وبعدما استطاع فى النهاية أن يحرر أرض مصر من الاحتلال الأجنبى بجلاء البريطانيين عام ١٩٥٦ ، وجد عبد الناصر بعد مرور عشر سنوات قوات أجنبية اسرائيلية تحتل شبه جزيرة سيناء ـ وتستولى على آبار البترول فيها ـ وبعدما استرد السيطرة كاملة على قناة السويس وجدها تغلق فى وجه الملاحة الدولية وتصبح عديمة الفائدة وتحتل اسرائيل ضفتها الأخرى ، وبعدما رفض أى حلف غربى أو حماية غربية تحقيقا للاستقلال التام ولعدم الانحياز وجد نفسه يعتمد

كل الاعتماد على المساندة السوفيتية العسكرية والدبلوماسية .
وقد كافح عبد الناصر دائما من أجل استقلال اقتصادى ومساعدات اجنبية غير مشروطة ولكنه وجد نفسه بعد عام ١٩٦٧ يحمل عبء دين أجنبى يبلغ ألف مليون جنيه ويعتمد على معونات من حكومات عربية أخرى منهـا خصمه الرئيسى الملك فيصـــل فى العربية السعودية .

ولكن أكـدت الأحـداث منذ وفـــاة عبد الناصر أن هذه الانتكاسات كانت فى فى معظمها مؤقتة عابرة ولم تغير من شىء من جوهر الأوضاع التى حققت استقلال مصر ، وحتى قبل أن يشن السادات حرب ١٩٧٣ والتى أدت الى اعادة فتح القناة والى عودة سيناء على مراحل فى ظل معـــاهدة صلح مع اسرائيل .. كان واضحا أن الاسرائيليين لا يمكن أن يبقوا الى الأبد فى سيناء ، وحتى لو استبقوا قوات لمدة أطول فى شرم الشيخ « التى تنازلوا عنها الآن » فان الوزن السياسى لوجودهم العسكرى هذا لم يكن ليقارن فى شىء بوجود عشرات الآلاف من القوات البريطانية ذات يوم فى السويس .

ولم يستطع السوفيت قط أن يحولوا مصر الى بلد تابع ، وقام خبراؤهم ، الذين كان يبلغ عددهم نحو ١٥ ألف ، بمغـادرة مصر بمجرد أن طلب اليهم السادات ذلك .

وقد استطاع السادات أن يحقق جلاء اسرائيل عن سيناء .
لأنه من جهة كان مستعدا لأن يدفع ثمنا اغلى مما كان عبد الناصر يقبل أن يدفعه ، وكان مستعدا للتحول والانقلاب بالتحالف من روسيا الى أمريكا ، ومن جهة اخرى كان مستعدا للتعامل المباشر مع اسرائيل ولقبول معاهدة صلح كاملة مع اقامة علاقات طبيعية حيث كان يغامر بفقد تأييد العرب ، وفقدان مكانة مصر ودورها القيادى فى الوطن العربى .

وقد ساعد السادات فى تحقيق هذا شعور الارهاق المتزايد

من الحرب الذى أحسه المصريون والشعور العام لديهم بأن مصر لا يمكن أن تستمر مخلب قط تنتزع الكستناء من النار لحساب العرب ·

على أن مبادرة السادات للسلام ما كان يمكن أن تتم بغير حرب عام ١٩٧٣ وبغير حظر البترول العربى الذى صاحبها ، وقد كسبت مصر ما حققته من نجـــاح فى هذه الحـــرب بالأسلحة السوفيتية وبالاستعدادات العسكرية التى بدأت خـــلال حكـــم عبد الناصر · ولم يكن استعداد الولايات المتحدة لأول مرة أن تضغط على اسرائيل من أجل التقدم خطوة خطوة نحو السـلام نتيجة لفصم السادات لعلاقاته مع الاتحاد السوفيتى فحسب ولكن نتيجة لاستعراض القوة العربية بحظـر البترول ورفـع الأوبيك لأسعاره ، واثبات ما يمكن لعالم عربى متحـد أن يمارســه من ضغوط ·

وقد كانت قدرة الجيش المصرى المفاجئة على استخدام أحدث الأسلحة التى تمخضت عنها التكنولوجيا العسكرية المعاصرة هى ثمرة لانتشار التعليم العالى انتشارا واسعا فى مصر تحت حكم عبد الناصر ، والذى تحقق بالرغم من هبوط المستوى فى التعليم الثانوى والجامعى ·

وقد وجه النقد الى عبد الناصر فى سنى حياته الأخيرة من أوساط كثيرة ومعظمهم الآن خصوم السادات · كان هناك الاخوان المسلمون الذين حاولوا اغتياله والذين كان لا يتسامح ازاءهم ، وكان هناك الشباب اليساريون الذين تطلعوا باعجاب الى المقاومة المسلحة الفلسطينية اكثر مما تطلعوا الى الشيوعية التقليدية ·· وجاء النقد من الطبقات الوسطى المتعلمة التى ساعد عبد الناصر على نموها وتكاثرها ، وكانت تطالب بديمقراطية أكثر وبكفاءة ونزاهة اكثـــر ، وبالتخلص من الطبقـــة البيروقراطية الجديدة والفاسدة أحيانا ، والتى تكونت من الضباط السابقين الذين تولوا

ادارة المؤسسات الاقتصادية • وجاء النقد من جيل عربى جديد تطلع الى موقف أكثر عملية و « براجماتية » من الوحدة العربية ـ على نسق السوق المشتركة ـ ويقوم على تنسيق المصالح وليس على الخطب والشعارات •

وقد كان تفكير عبدالناصر بشأن الوحدة العربية يتجه حثيثا الى هذا الطريق ، ومع أن آراءه بدت لبعض الوقت قريبة تماما من آراء حزب البعث العربى الاشتراكى الذى تولى السلطة فى سوريا والعراق الا أن الأساس كان مختلفا ، وكان الاختلاف يشبه ذلك القائم بين آراء ديجول حول الوحدة الأوربية وبين آراء دعاة الوحدة الأوربيين فى اقامة دولة كبرى فوق الدول تحقق « بعثا أوربيا » لجماعة أوربية جديدة ، وهى المثل التى ألهمت رواد الدعوة الأوربية أمثال شومان واديناور ودى جاسبيرى » •

وقد كان أساس اهتمام عبد الناصر بالوحدة العربية هو اقامة جبهة عامة لحماية استقلال مصر والمنطقة العربية ضد القوى الخارجية ، وكان هدفه الآخر هو دفع التنمية الاقتصادية فى مصر وكان الوطن العربى يقدم سوقا واسعة لبضائع ومنتجات المصانع الجديدة فى مصر فضلا عن المزايا الأخرى التى يحققها قيام اقتصاد اقليمى كبير يوفر فرص عمل للخبراء المصريين وللعمال المصريين ومن اجتذاب استثمارات عربية أكثر الى مصر من دول البترول •

وقد كان عبد الناصر أول رجل دولة عربى يدرك تماما الامكانيات الجيوبوليتيكية لوطن عربى متحد فى ظل سيطرة موحدة أو متناسقة على الموارد الأساسية للبترول فى العالم وعلى طرق نقلها عبر قنال السويس أو خطوط الأنابيب ، « وقد كان انطونى ايدن يدرك هذا أيضا ، وكان السبب الرئيسى فى دفعه لحرب السويس ، وحينما ندد ايدن ومولية بعبد الناصر ووصفاه بأنه هتلر آخر رد عبد الناصر قائلا : ان ما يفزعهم حقيقة هو أثر الثورة الآسيوية والافريقية على مصالحهم الاقتصادية » •

وقد أثبتت حرب ١٩٧٣ وأزمة الطاقة التى صحبتها مدى ما يمكن أن يكون عليه التضامن العربى وقوة سلاح البترول ، وكانت سخرية القدر أن هذا السلاح استعملته أفضل دولة صديقة للغرب فى المنطقة وهى العربية السعودية ولم تستعمله مصر المعادية للغرب ٠٠ ولكن بعد نهاية الحرب ، وبالرغم من الثروة الجديدة الهائلة التى حققتها ثورة « الأوبيك » ـ أو ربما بسببها ـ فقد انهار التضامن العربى بعد عام أو عامين وانعكس هذا الانهيار فى الحرب الأهلية اللبنانية التى استدرجت اليها كل أجنحة الصراع فى العالم العربى سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ٠

وقامت بعدئذ وحدة مؤقتة ليست بقيادة مصر ، ولكن ضدها ، هذه المرة ونتيجة لزيارة السادات للقدس ومبادرته للسلام واتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية ، وكان هذا أعنف انشقاق فى صفوف العرب حتى الآن ، وانتهى الى فصل مصر من الجامعة العربية التى نقلت مقرها من القاهرة الى تونس والى مقاطعة مصر ، ولكن سرعان ما بدأت جبهة الرفض التى تكونت ضد مصر تنشق على نفسها ، وأمسكت العراق وسوريا كل منهما بعنق الأخرى ، ثم شنت العراق بقرار منها حربا ضد ايران ٠

وقد كشف مؤتمر القمة العربى الحادى عشر فى عمان مدى تفاقم الشقاق فى الوطن العربى وذلك بمقاطعة سوريا ومنظمة التحرير والجزائر وليبيا واليمن الجنوبية للمؤتمر الذى انعقد فى نوفمبر « تشرين الثانى » عام ١٩٨٠ ٠

ولدى مصر ـ على عكس معظم الدول العربية الأخرى ـ احساس قوى بذاتها كدولة ومع أنها كانت فى الماضى والحاضر مركزا للعالم العربى فى أمور كثيرة الا أن مصر عميقة الاحساس بمصريتها بقدر احساسها بأنها عربية ، ومن الطبيعى أن تفكر على أساس جهد مشترك لمجموعة دول وليس على أساس دولة كبرى يذوب فيها الكل ٠

وكان عبد الناصر يرى أن الوحدة العربية السياسية لابد وأن تكون الهدف الطبيعي لشعوب تتكلم نفس اللغة وتشترك فى نفس الوعى التاريخي ، ولكن لم يكن عبد الناصر يلقى اهتماما بأى وحدة عربية الا فى اطار الحاجة الى سياسة موحدة وخاصة بعد انهيار الوحدة مع سوريا •• وعلى هذا الأساس ربما تقوم أشكال جديدة من الوحدة تعكس مصالح مشتركة ولكن سوف تستغرق بلا شك وقتا أطول •

ويرى البعثيون فى الوحدة العربية ضرورة ملحة لتحرير امة عربية قائمة بالفعل وازالة حدود سياسية مصطنعة وكيانات شبه وطنية فرضتها مصالح أجنبية ، وأن الدول العربية والحكومات العربية القائمة ليست أكثر من حواجز وعقبات مصطنعة يجب أن تكتسح •

وبعد حرب ١٩٦٧ ، أخضع عبد الناصر كل طموحه نحو وحدة عربية للحفاظ على جبهة متحدة ضد اسرائيل لاستعادة الأراضى العربية المحتلة ، وتصالح مع أقوى خصومه فى العالم العربى فيصل ، وسحب قواته من اليمن عام ١٩٦٨ ، وأصبح دور عبد الناصر فى مؤتمرات القمة التى عقدت بعدئذ هو دور الوسيط الأبوى الواسع الصدر ، وقد كان يقوم بهذا الدور عام ١٩٧٠ فى الحرب الأهلية فى الأردن بين الملك حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية حينما ادركته الوفاة •

وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ظل عبد الناصر حتى النهاية الخصم الخطر المتطرف عدو أمريكا وصديق روسيا ، ولعل عبد الناصر كان يمكن أن يقبل تسوية مع اسرائيل قائمة على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وعلى الاعتراف باسرائيل وعلى انهاء حالة الحرب مقابل انسحاب اسرائيل الكامل من كل الأراضى المحتلة •• وقدقبل عبد الناصر مبادرة روجرز ولكنه كان يثق أن اسرائيل لا يمكن أن تنسحب الا اذا ارغمتها القوة العربية أو الضغط الأمريكى •

ولم تكن الولايات المتحدة في ظل نيكسون ـ كيسنجر مستعدة لأن تسمح بأن تطرد اسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها بقوات مصرية وسورية مسلحة تسليحا سوفيتيا ، ولم تكن مستعدة للضغط على اسرائيل لحساب العرب طالما كان عبد الناصر مصرا على سياسته الخارجية المعادية للولايات المتحدة وطالما كان يهيىء للاتحاد السوفيتي دورا بارزا في مصر ، وفي مذكراته « سنوات البيت الأبيض » كتب كيسنجر معبرا عن حيرة الدبلوماسي المحترف ازاء دبلوماسية عبد الناصر « كان عبد الناصر يصر على انسحاب اسرائيل التام وبلا قيد أو شرط من كل الأراضي المحتلة ولم يحاول أن يفسر لنا ما الذي يدعو اسرائيل ويحفزها الى مثل هذا الانسحاب مقابل عروض مبهمة عن انهاء حالة الحرب ، وكان عبد الناصر يعتمد علينا في انتشاله من نتائج تهوره ومغامرته عام ١٩٦٧ ، ولكنه لم يكن مستعدا لأن يتخلى عن دوره كبطل القومية العربية الثورية وهو الدور الذي دفعه دائما الى مواقف صريحة العداء لأمريكا في كل القضايا الدولية تقريبا » ، وأضاف كيسنجر « ان عبد الناصر يريد كل شيء مقابل لا شيء ، وهو ما لا يمكن أن يكون أساسا لسياسة خارجية عملية » .. على أن كيسنجر ونيكسون كانا مهتمين بوقف امتداد النفوذ السوفيتي وباحتواء الثورة العربية في الشرق الأوسط أكثر من اهتمامهما بدفع اسرائيل الى تسوية سلمية ، وخلال زيارة عبد الناصر الى موسكو عام ١٩٧٠ ، وهي الزيارة التي تقرر فيها ارسال صواريخ مضادة للطائرات الى مصر ، بعث نيكسون بمذكرة الى كيسنجر تقول « ان اهتمامنا الأول الذي يسبق كل اهتمام آخر في الشرق الأوسط هو اثارة أكبر قدر من المتاعب للسوفيت .. ولا تدع الصراع العربي ـ الاسرائيلي يحجب عنك هذه الحقيقة » .

ولم يحدث أن بذل نيكسون أو كيسنجر أي محاولة من أجل فهم صحيح لعبد الناصر ومشكلاته ، ولم يكن لديهما أي تعاطف

قط نحوه ، ولهذا كانا يضعان العربة أمام الحصان دائما ، وقد كانت علاقات عبد الناصر بالاتحاد السوفيتي يحكمها صراعه ضد اسرائيل ، ومواقف الدول الغربية ضده ، ولعله لو توصل الى تسوية مع اسرائيل وعدلت الدول الغربية علاقاتها به كان قد تمكن من تقليل حجم اعتماده العسكرى والاقتصادى على موسكو ، ومن أن لا يستغرق فى كفاح وطنى مستميت ضد اسرائيل مثل الذى احتاجه لانهاء الاحتلال البريطانى ٠

وقد أثارت هزيمة عام ١٩٦٧ جدلا حادا حول ما اذا كان ينبغى لبلد ضعيف ماديا ومكشوف جغرافيا ، مثل مصر ، أن يطبق سياسة خارجية واسعة المدى ، وأن يجمع بين عدم الانحياز وبين الاعتماد على المساعدة الاقتصادية والعسكرية الخارجية ، وبين المقاومة الضارية ضد الامبريالية على النظام الاقليمى بل والعالمى ، ويعنى هذا الصدام المستمر مع أقوى دولة فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما كان يعنى سوء العلاقات مع دول غربية كثيرة تملك مصادر هامة للمساعدة والمعونة ٠

وقد أراد عبد الناصر أن يحمى مصر ويخفف من موقفهـا المحفوف بالتحديات بتعبئة العرب وراء سياساته وبالاعتماد أكثر وأكثر على الاتحاد السوفيتى ، ولكن أثبتت حرب عام ١٩٦٧ أنه لا العرب ولا الروس يمكن أن يتفقـا فى وجـه الولايات المتحدة الأمريكية ٠ واذا ما نظرنا الى العالم العربى الآن وما يسوده من انشقاق واضطراب ، فيما عدا السلام القائم بين مصر واسرائيل ، فان السؤال الطبيعى الذى يطرح هو : هل هذا ميراث خلفه وصنعه عبد الناصر وجزء من تراثه السياسى والاقتصادى أم انه يعود الى حد كبير الى غيابه عن المسرح ؟ وفى الاجابة عن هذا السؤال ينبغى تجنب الوقوع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه المعلقون الغربيون ازاء عبد الناصر وخلال حياته ، وهو أن ينسبوا اليه شخصيا أحداثا وتطـورات كانت فى حقيقتهـا فصـلا من حركة التاريخ

العريضة التى فهم مغزاها عبد الناصر والتى دفعها وشجعها والتى استفاد منها كما انه عانى الكثير بسببها ، ولكنها لم تكن من صنعه ·· كانت حركة الثورة الوطنية للتحرير والتجديد التى هزت أرجاء العالم العربى والعالم الاسلامى وكل بلاد العالم الثالث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ·

ربما تبدو الثورة الاسلامية السائدة الآن فى ايران للوهلة الأولى وكأنها رد فعل ساذج ضد محاولة اللحاق بالحضارة الحديثة ولكنها فى الحقيقة فصل من محاولة الموازنة بين عاملين أساسيين فى حركة الثورة ·· وهى تريد تحقيق اللحاق بالحضارة الحديثة ولكن بشرط أن تحقق أيضا التحرر الوطنى وبشرط أن لا يطمس الشخصية الحضارية القومية وأن يفرض سيادة غربية أو سوفيتية بطريق مباشر أو غير مباشر بواسطة التبعية الاقتصادية أو التكنولوجية أو الثقافية ·

ولقد كان عبد الناصر مسلما يؤدى فرائض الدين ، وفى كتابه فلسفة الثورة ، يقرر ان مصر ينبغى أن تتحرك فى ثلاث دوائر : الوطن العربى والعالم الاسلامى وأفريقيا ، ولكن ايمانه بالقومية العربية كان علمانيا فى جوهره ، وكان حذرا كل الحذر فى سياسته الداخلية والخارجية من استغلال الدين سياسيا ، وكان أعنف خصومه داخل مصر هم الاخوان المسلمون ، وكان يدرك تماما ما يمكن أن يسببب اقحام الاسلام من خلخلة للسلام الطائفى فى مصر ، حيث يكون الأقباط المصريون أقلية بارزة من أربعة ملايين تقريبا · وكان من بين الاصلاحات الرئيسية التى قام بها عبد الناصر الغاء المحاكم الشرعية والمحاكم الدينية الخاصة التى كانت تفصل فى قضايا الأحوال الشخصية · وحينما قرر السادات ، بضغط من السعودية واستجابة للمسلمين المحافظين فى مصر ، أن يطبق التشريعات المستمدة من الشريعة الاسلامية أثار رد فعل حاد بين الأقباط ·

وقد كان أنور السادات سكرتيرا عاما للمؤتمر الاسلامي في عهد عبد الناصر ، وقد كان هذا ترضية من عبد الناصر للشعور الاسلامي ولكنه كان يرى في محاولات المملكة العربية السعودية لاقامة حلف اسلامي مجرد حركة أوحت بها الولايات المتحدة الأمريكية كبديل للجامعة العربية وخطة لتقويضها ، وقد قاوم بهدوء محاولات باكستان لقيام وحدة اسلامية سياسية وذلك مراعاة لرد فعل الهند ، وبصفته أحد قادة حركة عدم الانحياز ، وقد كانت مكانته بين الدول غير المنحازة أهم لديه من التضامن الاسلامي ·

وفي الصراع القائم في العالم العربي بين العلمانية والاسلام وبين اليمين واليسار وبين الولايات المتحدة وروسيا ، وبين والوحدويين العرب والوطنيين المصريين كان عبد الناصر يقف دائما في الوسط يوازن بين الجميع ·· وكانت هيبته الشخصية تؤكد مكانة مصر كأكبر الدول العربية وأكثرها تقدما ·· ولا شك أن هذه الهيبة كانت كفيلة بتلافي مآسي ومشاكل مثل الحرب الأهلية اللبنانية أو الحرب بين العراق وايران ·

وتلاقى انجازات السادات الحالية من أجل السلام شعبية بين الناس في مصر ، وكذلك اجراءاته المحدودة نحو التحرر والديمقراطية ، وعلى الصعيد الوطني فان الاقتصاد يتحسن بالمساعدات الأمريكية الضخمة وكذا المساعدات العربية التي وصلت مصر حتى سنة ١٩٧٨ ، وكذلك الدخل من العملات الصعبة التي تحصل عليها مصر من قناة السويس ومن النفط ومن السياحة ومن تحويلات أكثر من مليوني مصري يعملون الآن في الخارج ومعظمهم في دول النفط العربية ·

ومع هذا لا يحصل المصري العادي على نصيب كاف من هذه الثروة الجديدة ولا يجد ما يعوض عن التضخم والغاء الدعم لأسعار الضروريات الغذائية والغاء نظم تحديد الايجار · وقد عبر المصريون الفقراء عن سخطهم في المظاهرات العنيفة التي شهدتها القاهرة والاسكندرية في يناير عام ١٩٧٧ ·

وربما لم تحل اشتراكية عبد الناصر العربية مشكلات الفقر المعقدة فى مصر ، ولكن كان لها اهتمام مضطرد وواسع المدى بالمحرومين يزيد بكثير عن سياسة « الباب المفتوح » فى عصر السادات التى تشجع الاستثمار الأجنبى وتحرر التجارة الخارجية ٠

وربما كان أهم تراث خلفه عبد الناصر للعرب المعاصرين هو الثقة فى القدرة على مواجهة العالم المعاصر والجدية فى السير نحو الهدف لتحقيق المجتمع الذى كان يحلم به ٠

وهناك جيل جديد فى الوطن العربى الآن يتطلع الى أيديولوجية جديدة وينظر بحذر الى النظم الفردية التى تقوم على سطوة شخصية واحدة والتى لا توفر لهم نصيبا فى ممارسة السلطة والمسئولية ولا توفر مجالا يحققون فيه مواهبهم وما تعلموه ولعلهم خلال بحثهم المتصل ومحاولاتهم تجنب الاستقطاب فى الوطن العربى بين الماركسية والاسلامية السلفية وبين الشرق والغرب يجدون فى دراسة حياة ومسيرة عبد الناصر بعض ما يرشدهم على الطريق ٠٠ وبعض المحاذير أيضا ٠

هذه دراسة موسعة لمقال للمؤلف صدر فى عدد فبراير ١٩٨١ من مجلة «History Today»

NOTES ON FURTHER READING.

Gamal Abdul Nasser, The philosophy of the Revolution, Ministry of Information (Cairo 1953); Anwar Sadat, In Search of Identity, Fontana (London, 1979); Robert Stephens, Nasser — A Political Biography, Penguin Books (London 1971) P. Vatikiotis (ed.), Egypt Since the Revolution, Allen and Unwin (London, 1968); Mohammed Heikal, The Road to Ramadan, Collins (London 1975); Peter Mansfield, The Arabs, Allen Lane (London. 1978); Henry Kissinger, The White House Years, Weidenfeld and Nicolson and Micheal Joseph (London, 1979).

عبد الناصر:

الثورة مستمرة

(محمد عوده)

يستطيع الانسان أن يتفق مع المستر ستيفنس أو أن يختلف معه ، ولكنه لابد أن يحترمه ويحاوره ، وهو كاتب يحب العرب ويحترمهم ، وأهم من هذا يفهم ولا ينقطـع اهتمامه المتصـل بقضاياهم ٠

وقد عرفت الحركة الوطنية المصرية على امتداد تاريخها موكبا من الأحرار البريطانيين ، انضموا اليها أو تعاطفوا معها ووقفوا موقف المعارضة أو المقـاومة من السياسات الرسـمية الاستعمارية ٠٠ والمستر ستيفنس لا شك واحد من أبرزهم ٠

وهو يطرح فى هذه الدراسة المختصرة كل القضايا الجوهرية والجدلية حول عبد الناصر وعصره ، وهو يطرحهـا كأسئلة وتساؤلات مشروعة ، وليس كاتهامات كما طرحت دائما ، وهى لهذا تستحق الرد والنقاش ٠

وأهم القضايا التى يثيرها :

عبد الناصر والديمقراطية :

هل كان عبد الناصر ديكتاتوريا وهل خنق النقد والحريات ، ورسم لنفسه صورة مثالية تحجب الحقيقة وكل الثغرات ، وهل استبعد الطبقة الوسطى ونفى المثقفين وتجاهل الجماهير ٠٠ لانه كان يحتكر السلطة ولا يريد أن يشاركه فيها أحد ؟ وهل اعتمد على أجهزة القمع ٠٠ الرقابة والبوليس ، ثم الجهاز الذى بث الرعب . وهو المخابرات ؟ وفى النهاية ٠٠ هل فشل عبد الناصر فى اقامة قاعدة وطيدة لسلطته وفى بناء تنظيم سياسى شعبى يخلفه ويحمى استمرار الثورة ؟!

عبد الناصر والقضية العربية :

هل كان عبد الناصر عربيا أم منح نفسه هذه الصفة ؟ وهل كان اختياره للعروبة ايمانا أم سياسة ومصلحة ؟ وهل كان وطنيا مصريا يرى فى العروبة مجرد استراتيجية لحماية مصر ·· والعرب بالتبعية ·· ولخلق سوق للمنتجات المصرية ولاقامة مجال حيوى لزعامته ولقيادة مصر ؟ هل اعتنق الوحدة العربية أم استخدمها لمجده الشخصى ولطموحه الوطنى ؟ وهل نجح أم فشل ؟ وهل كانت الوحدة السورية وحرب اليمن وحرب ١٩٦٧ فشلا ان لم تكن كوارث باهظة ؟!

عبد الناصر والاشتراكية :

هل أفلست وسقطت اشتراكيته العربية ؟ وهل تعثرت وتخبطت ؟ وهل نجحت نجاحا محدودا لم يحل المشاكل الأساسية ولم يخفف سوى القليل من وطأة الانفجار السكانى والبطالة المقنعة والمباشرة وانحطاط مستوى المعيشة عامة وتفاقم الفقر باضطراد ؟!

عبد الناصر والصراع الدولى :

هل كان عبد الناصر غير منحاز حقيقة ؟ وهل استفز الولايات المتحدة الأمريكية وبادأها بالعداء ؟ وهل تطرف فى هذا العداء الى حد لا تستطيع به قوته ؟ وهل ذهب لأبعد مما ينبغى فى علاقاته مع الاتحاد السوفيتى فى الاعتماد عليه وتجاوز حدود عدم الانحياز والموازين الدولية ·· وفى النهاية هل بالغ فى دور مصر على المسرح الدولى وأثقلها بالتزامات تفوق كثيرا قدراتها وتؤدى بها الى مزالق خطرة ؟

ـ ماذا بعد عبد الناصر ؟!

هل هو تدارك لأخطاء عبد الناصر واصلاح لعيوبه ؟ وهل هو ارتداد عنه ونقيض لسياسته ؟ هل حقق الديمقراطية وهل حقق السلام ؟ هل حقق الرخاء وشق طريقا أفضل ؟

وكلها أسئلة كبيرة ونحن لا نقدم القول الفصل ولكن رأيا آخر ونبدأ منه حوارا عاما ·· لا شك نحتاجه حول عصر هو أهم ما مر بالأمة العربية فى تاريخها الحديث ونحتاجه أيضا حول كل قضايانا ·

قضية الديمقراطية :

السؤال الأول الذى يطرحه المستر ستيفنس هو حكم التاريخ على عبد الناصر وكيف يكون ؟!

وليس للتاريخ حكم واحد على أى من « صانعيه » وأقطابه ، وهو يختلف باختلاف مناهج المؤرخين ·

ولعل أصدق حكم على هؤلاء ـ سواء كانوا ديكتاتوريين أم ديمقراطيين ـ هو حكم الشعب ·

والشعب هو الذى سعد أو شقى بالحاكم وهو أفضل وأعدل من يحكم له أو عليه ، وقد أصدر الشعب المصرى حكما صدق عليه أكثر من مرة ·

وفى يناير « كانون الثانى » عام ١٩٧٧ ، وبعد سبع سنوات من وفاة عبد الناصر ، قامت الانتفاضة الشعبية فى مصر ، وكانت واحدة من أكبر الانتفاضات فى التاريخ للشعب المصرى ، وكان سببها المباشر هو الغاء الدعم عن أسعار القوت الضرورى ، وذلك كما طلب صندوق النقد الدولى ، ولكن الأسباب الأخرى كانت أكثر وأعمق ·

وتميزت المظاهرات بأن الجموع الحاشـدة التى خرجت من الاسكندرية الى أسوان كانت تحمل شعارا واحدا رأت أنه يلخص كل ما تريد أن تعبـر عنه ·· وهو صورة عبد الناصر ·· وقد دهش الجميع أنه ما زال لعبد الناصر هذا العـدد من الصـور فى مصر ·

وجاءت الانتفاضة بعد سبع سنوات من حملة هستيرية ضارية لم يحدث مثلها من قبل فى تاريخ مصر وربما فى تاريخ أى بلد ضد عبد الناصر ولم تبق شيئا لم تلحقه به ، وأرادت لو تستطيع تصفية شخصه وعصره ورفعهما تماما من سجلات تاريخ مصر ٠

وفجأة انتفضت الملايين وخرجت تحمل صورته وتشهرها كأنها تعويذة أو طوق نجاة يحتفظ به كل مواطن ٠٠ وكتبت صحيفة بريطانية لم تتعاطف معه يوما تقول : بدا وكأن عبد الناصر ما زال يحكم مصر » ٠

وفى عام ١٩٧٠ مات عبد الناصر وذهب ، ولم تعد له سلطة ولا حول ولا طول ، وكان فى استطاعة الشعب أن يخرج أو لا يخرج ليشيعه ، وخرجت جنازة ، كانت مظاهرة حزن عميق جارف ساحق لم يشيع بمثلها زعيم ٠

وكانت « لغزا » غامضا لأعدائه الذين توقعوا أن يتنفس الشعب « الصعداء » لذهاب الطاغية ، حتى عقدت جامعة شيكاغو ندوة خاصة لدراسة « جنازة عبد الناصر » التى حيرتها ٠

وفى عام ١٩٦٧ وقعت النكسة ، وكانت أقسى ما يمكن لعبد الناصر ، وسقط الجيش الذى قيل انه يحكم بسطوته ، ودفعته شجاعته أن يقف ويعلن مسئوليته عن خطايا ارتكبها غيره وأن يتنحى ٠٠ وقبل أن ينتهى من خطابه كانت الملايين قد خرجت من كل ركن وشبر حتى من لم يخرج قط فى حياته ، وزحف طوفان من البشر الى بيته ولم يعودوا الا بعد أن عدل عن قراره وبقى ٠

وكان هدف الغزو الثلاثى عام ١٩٥٦ الأول والأخير هو اسقاط جمال عبد الناصر ٠٠ وأعلن أنتونى ايدن « ليس بيننا وبين الشعب المصرى أى خصومة وان معركتنا ضد الطاغية » ، ولم يكن لديه أو لدى موليه أو بن جوريون ، أبطال الغزو ، أى شك فى أن الشعب المصرى ينتظرهم كمحررين ٠

ووزع عبد الناصر السـلاح على الشعب لأول مرة منذ الاحتلال ، ونشبت معركة غير متكافئة ، كان العامل الحاسم فيها هى صمود « الجبهة الداخلية » ، وسقط ايدن وجى موليه واعتزل بن جوريون ، وبقى عبد الناصر ·

وفى عام ١٩٥٤ تحالفت الأحزاب القديمة فى آخر محـاولة لاستعادة السلطة واستطاعت أن تشق صفوف الثورة وان تستقطب « قائدها » وجناحها اليسـارى باسـم الديمقراطية ، وتفـاديا لصدام مسلح أعلن عبد الناصر « العودة الى الثكنات » ولكن أعلن العمال الاضراب العام ·· وان هذه ليست معركة الديمقراطية ضد الديكتاتورية العسكرية ولكن معركة الثورة ضد الثورة المضادة ·

وسقطت الأحزاب ·· وبقى عبد الناصر ، ولا نظن بعد كل هذه « الأحكام » التى صدرت بعد أدق الاختبارات أن ينطبق لقب « الديكتاتور » على عبد الناصر ، وأبسط تعريف للديكتاتور هو الحاكم الذى يقهر الأغلبية لصالح الأقلية ، ولا يمكن أن يخرج الشعب المصرى بفطرته السياسية ووعيه ليتشبث بديكتاور خنق المعارضة ورسم صورة زاهية لنفسه واعتمد على أجهزة القمـع والقهر والرقابة ·

والثورة كما يقول مثل معروف « عيد للجماهير ومأتم للسادة » والثـائر بطـل للفقـراء المحـرومين وطاغية بالنسبة للمستغلين والمستبدين ، وكان عبد الناصر بلا شك طاغية مغتصبا بالنسبة للباشوات والبكوات فى مصر ولكنه البطل المخلص الذى انتظره طويلا العمال والفلاحون وكل الفقراء المحرومين ·

وذات يوم نشرت صحيفة هندية مقـالا بلا توقيع بعنـوان « نهرو ·· هل هو ديكتاتور ؟ » وجاء فيه « هذا الرجل الذى تمنحه الهند كل هذه الثقة وهذا الحب ، وهذا التفويض ليقرر مصيرها

هل هو ديكتاتور ٠٠ أو سوف يكون ٠٠ انه الآن يفعل ما يشاء وكيف يشاء ٠٠ وتصدق الجماهير على كل ما يفعله وتباركه ٠٠ ولكن ألا يتنافى هذا مع الديمقراطية ويتهددها ، وهل ينتهى الى ديكتاتور صريح » ٠٠ ودعا الهند الى الاجابة وأجابت بفيض جديد من الثقة والحب والتفويض الى نهرو ، وكان هو الذى بنى الديمقراطية فى الهند ٠

ولم يعرف الا بعد زمن طويل ان كاتب المقال هو « نهرو » نفسه ، والبطل القومى ليس الديكتاتور ٠٠ وهو حقيقة فى حياة كل الشعوب وباعتراف كل النظريات والايديولوجيات ، وتصنع الشعوب دائما تاريخها بجماهيرها ، ولكن دور الفرد قائم وحاسم ٠

ولا يولد البطل صدفة ولكن فى الأزمات واللحظات العصيبة ، وعند نقط التحول ، ويكون تعبيرا عن ارادة جماعية كامنة ، ولكى يجتاز ويعبر منحنيات خطرة ٠٠

ولا يمكن تصور التاريخ القديم أو الحديث بغير أبطاله ٠٠ ولا يمكن تصور القرن العشرين مثلا بغير روزفلت وتشرشل ولينين أو بغير ماو تسى تونج ونهرو وعبد الناصر ٠

ولا ينطبق على هؤلاء « القانون الدستورى » العام ، وقد عاش عبد الناصر ومات لكى تسترد الجماهير انسانيتها ولكى تصنع حياتها بنفسها ، ولذا لا يمكن أن يتهم بالخوف منها أو خشيتها أو باستبعادها من المشاركة فى السلطة ٠

كانت الجماهير قضية حياته ومصدر كل قوته وسلطته ، وقضية الديمقراطية فى مصر لم تبدأ ، على أى حال ، من عبد الناصر ، وللديمقراطية تراث عريق فى مصر ، ولها معركة بامتداد تاريخ مصر الحديث ، لا يمكن فهمها الا فى هذا الاطار ٠

وقد لا يعرف كثيرون ، انه فى الربع الأخير من القرن الماضى ، كانت هناك ثورة وطنية ديمقراطية كاملة فى مصر ، وكانت تريد خلع الخديو والاستقلال عن السلطان وأن تقيم جمهورية ديمقراطية برلمانية وحزبية على النسق الأوربى ·

وكان هناك حزب سياسى عصرى ، نشرت صيحة التايمز برنامجه كاملا ، نموذجا ليقظة الشرق ، وكان هناك برلمان يفيض بالحيوية والحوار شبهه مراسل التايمز أيضا ببرلمان الثورة الفرنسية ، وكانت هناك قيادات وطنية شعبية ، سياسية وعسكرية ، وأعد مشروع « دستور » مقتبس من الدساتير الأوربية وليصدر عن جمعية تأسيسية ويكون « ميثاق » مصر الحديثة ·

وتقرر أن الوطنية والديمقراطية سابقة خطرة ، وأنها تهدد المصالح الدولية الكبيرة وانها يجب أن تقمع ، وجاء الأسطول من « بورتسموث » وجاءت القوات من بومباى ·· وقررت « أم الديمقراطية » سحق الثورة والحزب والبرلمان ومشروع الدستور ونفى القادة الوطنيين الى جزيرة نائية ، وأن يعود الاستقرار ويأمن حكم الخديو والسلطان والمصالح الأوربية ، وتقرر احتلال مصر حتى لا تتكرر « المأساة » وانتدب « اللورد دوفرين » ليضع نظاما جديدا « مستنيرا » لحكم مصر ، يتدرب خلاله المصريون ويتعلمون حكم انفسهم بأنفسهم ، وكان فخامة اللورد من « بناة » الامبراطورية وذو خبرة طويلة بالشرق اكتسبها فى اسطنبول وفى كلكتا ، وكان يرى أن الديمقراطية البرلمانية نظام « أوربى » لا يصلح للشرقيين لأنه يتجاوز قدراتهم ووعيهم ·

واعتمادا على خبرته الهندية والعثمانية ، وضع نظاما مستمدا من النظم فى مقاطعات الهند وولاياتها ، اى هرم من المجالس التشريعية والتنفيذية والمحلية « الجوفاء » تقدم واجهة لسلطة الحاكم او المعتمد البريطانى المطلقة ·· وحكمت مصر بهذا

النظام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ·· وكانت تجربة مريرة رسبت عميقة فى ضمير مصر ووعيها ·

وبعد الحرب العالمية الأولى وفى عام ١٩١٩ انفجرت ثورة وطنية شعبية اكتسحت مصر كلها ، وكسرت حاجز الرهبة من الامبراطورية « المنتصرة » أمام كل شعوب الشرق ·

واستأنف الشعب ثورته وبنفس الأهداف والمطالب ، وفوجئت السلطة البريطانية التى نصبت نفسها حامية « للفلاحين » والتى كانت تستعد لضم مصر نهائيا الى الامبراطورية بانتفاضة كل الشعب ضدها ·

وحينما عجزت السلطة عن القضاء على الثورة هذه المرة قررت التنازل والتسليم لها ببعض المطالب ، وكان فى مقدمتها « الدستور » ، وصدر هذا الدستور عام ١٩٢٣ وحكم الحياة السياسية المصرية حتى قيام الثورة عام ١٩٥٢ وكان محور معركة « الديمقراطية » ·

ولم يصدر الدستور عن جمعية تأسيسية منتخبة وفق المبادىء الديمقراطية الصحيحة وكما طالبت الحركة الوطنية ، ولكن صدر عن لجنة قانونية لم يمثل فيها حزب الأغلبية ، وهو الوفد ·

وبمجرد اعلان مشروع الدستور اعترض المعتمد البريطانى وطالب بحذف بعض نصوصه التى تؤكد السيادة المصرية ، ثم قدم انذارا هدد فيه بالغاء الدستور اذا لم تحذف ، والغيت النصوص ·

وصدر الدستور منحة من « جلالة الملك » ، وكان أميرا اختاره البريطانيون وولوه العرش لتعهده بالولاء المطلق ، وضخموا من مكانته ، ومنحه الدستور سلطات وحقوقا تتيح له التحكم فى الحياة الدستورية فيما بعد ·

وبعد جدل وحوار طويل حاد ، قبلت الحركة الوطنية الدستور على أمل تغييره حينما تصل الى السلطة ، وكانت على ثقة من ذلك ٠

وجرت الانتخابات وفاز « الوفد » حزب الأغلبية وقائد الحركة الوطنية فوزا ساحقا ، وتولى زعيمه « وزعيم الأمة » سعد زغلول باشا ، رئاسة أول وزارة وطنية ديمقراطية منذ الاحتلال عام ١٨٨٢ وبدأ عصر جديد وانتقال الثورة الى الكفاح السياسى الدستورى ، وتحويل التنازلات والتحفظات الى استقلال حقيقى ٠

وبدأ الخلاف والصدام سريعا بين الحكومة الوطنية وبين « دار المندوب السامى » واشتد الخلاف وتفاقم بعد فشل المفاوضات بين بريطانيا والحركة الوطنية حول المسألة المصرية ٠

وفجأة وقع حادث اغتيال ، وراح ضحيته السير لى ستاك باشا ، سردار الجيش المصرى ، وكانت الاغتيالات السياسية قد وقعت بعد قيام الحكومة الوطنية ، ولم يكن اسم الجنرال فى القائمة لأنه لم يكن من غلاة الاستعماريين ، ولم تعرف القوى الوطنية بالأسباب ولم تجد له تبريرا أو تفسيرا ، وتكهنت الدوائر الوطنية وما زال هذا التكهن قائما ، بأن الأجهزة البريطانية دبرته واستدرجت اليه الوطنيين الذين اشتركوا فيه ٠٠ وكانت لها سوابق كثيرة مماثلة ٠

وفور وقوع الحادث ، وبأسرع مما يمكن ، حتى لقد بدا وكأنه مقرر ، قام فخامة المندوب السامى الفيكونت اللورد اللنبى على رأس كتيبة من جنود الخيالة البريطانيين حاملى الحراب ، وسار فى مظاهرة اخترقت شوارع القاهرة حتى مقر رئيس مجلس الوزراء ، ودخل عليه بلا استئذان ليقرأ انذارا بعدة مطالب متطرفة ولا دخل لها بالحادث ٠

وكان أحد هذه المطالب دفع نصف مليون جنيه الى أرملة الجنرال التى رفضت قبوله ، ورفضت استغلال حادث زوجها ضد المصريين ، وبدا وكأنها تعرف شيئا عن حقيقته ٠

ورفضت الوزارة الوطنية المطالب وقدمت استقالتها وتقرر حل البرلمان ، وكان الدستور ينص على ضرورة اجراء الانتخابات بعد شهر من حل البرلمان ٠٠ وأجريت الانتخابات بعد حملة تشهير واسعة النطاق بالوفد ، وبعد كل جهد ممكن لاسقاطه ، ولكن فوجئت السلطة والقصر بنجاح الوفد ، وبنفس الأغلبية الساحقة وبحتمية عودته الى الحكم بنص الدستور ٠

وحدث ما لم يخطر ببال أحد ، وبمجرد انعقاد الجلسة الأولى للبرلمان ، وبعد ساعة ونصف فقط من انعقادها ، صدر المرسوم « الملكى » بحل البرلمان ، بعد أقصر وأغرب جلسة فى تاريخ الحياة النيابية وتاريخ الديمقراطية عامة ٠

وأصبحت الديمقراطية معركة بين حزب الأغلبية وبين الملك والمندوب السامى البريطانى ٠ وفى عام ١٩٢٨ ضاقت السلطة ذرعا ، حتى بالواجهة وبالأشكال والحيل الديمقراطية التى أصبحت تجيدها ، وقررت أن تسفر صريحة ، وكلف محمد محمود باشا « خريج جامعة كمبريدج » وسليل واحد من أكبر « البيوتات » ورئيس حزب « الأحرار الدستوريين » أن يؤلف الوزارة وأن يلغى الدستور لمدة ثلاث سنوات وأن يحكم مصر « بيد من حديد » وليحقق الاصلاحات الداخلية والأساسية التى طال انتظارها فى مصر والتى عرقل تنفيذها بالحكم النيابى ٠

وتقرر تعيين حاكم بومباى اللورد « جورج لويد » مندوبا ساميا جديدا فى مصر ليرعى تطبيق السياسة الجديدة « الحازمة » وكان قد اشتهر ببطشه بالوطنيين الهنود ، وبالفتك بأنصار « غاندى » المسالمين ٠

ولسوء حظ الاثنين تغيرت الحكومة في لندن وجاءت حكومة مختلفة من حزب العمال ورأت تغيير السياسة ومهادنة الوطنيين ، وعودة الوفد ومحاولة الوصول الى تسوية شاملة للقضية المصرية ٠

وأقيل رئيس الوزراء الذى كان مشهورا بعنجهيته واستبدل المندوب السامى ، بآخر أكثر مرونة ، وجرت الانتخابات بلا تدخل ، وعاد الوفد الى السلطة ٠

وسافر رئيس الحكومة وزعيم الوفد مصطفى النحاس باشا الى لندن لمفاوضة حكومة العمال « الاشتراكية » على حقوق الشعب المصرى ، وفى جو من التفاؤل والحرص والحماس ، ولكن لم يجد هناك فرقا كبيرا بين المحافظين والعمال ، وأراد العمال تقاضى ثمن العودة بالوفد الى السلطة ، وتعثرت المفاوضات وفشلت ، وعاد الوفد الى مصر وعادت القضية الى حلقتها المفرغة ٠

ولم يمض وقت طويل حتى كان « المرسوم الملكى » يصدر باقالة حكومة الوفد واختيار رئيس حكومة جديد ، وكان رجلا فذا فريدا قام على يديه وهو وزير داخلية فن « تزييف الانتخابات » ووضع القواعد التى ظلت سائدة حتى النهاية ٠

ونظرا لتعلق المصريين بالديمقراطية واصرارهم على الدستور فقد رؤى هذه المرة أن لا يلغى الدستور ، ولكن أن يستبدل بدستور « أفضل » وأن يقوم على حمايته حزب جديد باسم « الشعب » ويحمل اسمه أيضا ، وأن تجرى الانتخابات حرة وأن يكسبها الحزب بنسبة ٥ر٦٧٪ أى بما لا يسمح لأحد بالشك فى النتيجة ٠٠ واستمر هذا الحكم أطول مدة ممكنة وحتى بدت طلائع الحرب العالمية الثانية ، وخلال الحرب العالمية الثانية ، تدهورت الأوضاع السياسية والاقتصادية داخل مصر ، واقترن هذا بتدهور موقف بريطانيا العسكرى على حدود مصر ، وزحف الألمان نحوها ، وبدت

الحاجة ماسة لتدارك الموقف ولتامين الجبهة « المصرية » الداخلية ولم يكن يستطيع هذه المهمة الا « الوفد » حزب الأغلبية ، وعدو القصر وخصمه العنيد ٠

وذهب السفير البريطاني السير مايلز لابسون يصحبه القائد العام للقوات البريطانية الجنرال ميتلاند ويلسون « حاملا مسدسه » على رأس كتيبة دبابات بريطانية اقتحمت القصر الملكي وحاصرته ، ودخل الاثنان على الملك ليتلو السفير انذارا بضرورة عودة الوفد فورا الى الحكم « وحتى مساء الغد » والا يتحمل الملك كل النتائج ٠

وكانت طريقة معكوسة لفرض الديمقراطية ، وقد وضعت الوفد والقوى الوطنية فى أشد الحرج ، ومكنت خصوم الوفد من التشهير به ومن أنه جاء الى الحكم على حراب البريطانيين ، وحكم الوفد أطول مدة بقى فيها فى السلطة لعامين وبضعة أشهر ، وحينما انحسر الخطر وارتد الألمان وبدت نتيجة الحرب مؤكدة فى صف الحلفاء ، قرر السفير البريطانى أن يمضى أجازة فى مكان بعيد ، أبعد مكان فى جنوب افريقيا ، وذلك ليهيىء لجلالة الملك الفرصة لاقالة حكومة الأغلبية الوطنية بخطاب من بضعة سطور ٠

* * *

وفى عام ١٩٤٩ بلغت الأزمة الوطنية فى مصر ذروتها وتحتم اجراء انتخابات « حـرة » كانت تعنى لابد من عودة الوفد الى السلطة ، وجرت الانتخابات وعاد الوفد بأكبر أغلبية حصل عليها فى تاريخه ، وكان ذلك تفويضا من الشعب ليحسم القضية الوطنية التى تعثرت طويلا ، وكانت الثورات والانتفاضات قد عمت شعوب آسيا واستقلت الهند والصين واندونيسيا ٠٠ وبقيت مصر تتخبط ٠

وتشجع الوفد بأغلبيته الحاسمة ، واستجاب لارادة الملايين ، وأعلن الغاء المعاهدة القائمة مع بريطانيا ، واعلان افلاس الطريق

السياسى ، ودعا المصريين الى الكفاح المباشر المسلح لتحرير الوطن ٠

ولكن بعد قليل نشب فجأة الحريق الذى التهم القاهرة وسادت الفوضى ، واستدعى الجيش لحفظ الأمن وأقيلت وزارة الوفد ، وتولى جلالة الملك السلطات كاملة ، وبدأت تصفيته للقوى الوطنية والديمقراطية فى مصر ، ولم ينقذها الا قيام الثورة ٠

وقد كشف وزير داخلية الملك فاروق فى ذلك الحين « مرتضى المراغى » أن القصر كان المسئول عن حريق القاهرة ، وكشف رجل المخابرات المركزية الأمريكية « مايلز كوبلاند » أن الولايات المتحدة كانت تعد لانقلاب عسكرى بقيادة الملك فاروق فى مصر ، وكان جلالته يستضيف قادة الجيش وضباطه ، احتفالا بعيد ميلاد ولى العهد ، بينما كانت القاهرة تحترق ٠

رسب الحدث عميقا فى ضمير مصر ووعيها وأجمعت القوى الوطنية أنه لا يمكن أن تقوم للديمقراطية قائمة فى مصر طالما بقى الملك والاقطاع والاحتلال ٠

لا يمكن أن تقوم ديمقراطية طالما كان السفير البريطانى معتمدا على ٨٠ الف جندى بريطانى هو السلطة الحاسمة ، وطالما كان الملك أداة تتلقى تعليماتها منه ، وتعين الحكومات وتقيلها حسب رغبته ، وطالما بقيت طبقة موالية تتكون منها الأحزاب والحكومات وتنفذ كل ما يطلب اليها ٠

ولم يكن ممكنا أن يذهب هؤلاء بالحوار الديمقراطى وكان لابد من ثورة ، ولم يشك أحد فى ذلك الحين أنها محتومة ٠

* * *

وكان أول ما قامت به ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ هو خلع الملك وتصفية الاقطاع ، وتنظيم الكفاح المسلح لتحقيق الجلاء ، وقد

تحقق باتفاقية ١٩٥٤ ، وبهذه الإنجازات الثلاثة ، ارتفعت العوائق الرئيسية التى أهدرت الديمقراطية والحياة النيابية طوال ثلاثين عاما ٠

ولكن أثبتت التجربة أن هدم العوائق والحواجز لا يكفى وأن اقامة البناء الديمقراطى وحمايته تعتمد على ضمانة واحدة هى « الناخب » والمواطن الواعى والذى لا يشترى أحد صوته ، ولا يرغمه أو يخدعه أحد فى اختيار من يمثله ، ولا يمكن أن يكون هذا «المواطن» هو الجاهل الأمى فى محيط من ٧٠٪ أو ٨٠٪ من الأميين ، ولا يمكن أن يكون هو المواطن العاطل الجائع ، فى طوفان من ٦٠٪ على الأقل من فائض سكان مصر ، ولا يمكن أيضا أن يكون ذلك المواطن المريض الذى تفتك به خمسة أمراض على الأقل منها ثلاثة مستوطنة مزمنة ٠

لا يمكن أن يسترد هذا « الناخب » انسانيته بمجرد رد الحقوق السياسية « الشكلية » ، لابد أن ترد له حقوقه الاقتصادية وأن ترد له حقوقه الثقافية ، وأن يملك من الثروة ومن المعرفة ما يمكنه من ممارسة « الديمقراطية » ٠

لا تكفى تصفية الاستعمار والاستبداد لكى تقوم الديمقراطية بل لابد أيضا من تصفية الاستغلال ، ولهذا كان لابد للديمقراطية فى مصر أن تتجاوز الديمقراطية « الليبرالية » البورجوازية الى ديمقراطية أعلى وأعمق هى الديمقراطية الاجتماعية الاشتراكية ٠

وكان هذا هو دور عبد الناصر ومساهمته وتراثه ، واذا كانت الثورة « العرابية » قد وضعت أسس الديمقراطية « الليبرالية » فان الثورة « الناصرية » قد تقدمت بها مرحلة تاريخية أبعد ، الى الديمقراطية الاجتماعية الاشتراكية ٠



وكانت هذه هى الأسس والمبادىء ، والرؤية البعيدة الأفق ، وكان طبيعيا عند التطبيق ، أن تصطدم بكل العقبات والعثرات ، وبرواسب الماضى الثقيلة ٠

وفى البداية كان لابد من اختيار أسلوب الحكم عامة وهل يكون ديكتاتوريا أم ديمقراطيا ، وصرتت أغلبية عشرة من اثنى عشر صوتا فى مجلس قيادة الثورة باختيار الديكتاتورية ومحاكمة الملك واعدامه ، وصوت عبد الناصر وعضو واحد آخر « خالد محيى الدين » فى صالح الديمقراطية ·· وقدم عبد الناصر استقالته فى الاجتماع الأول ، ولكنه عاد بارادة اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار الذين أقروه على اختياره ٠

وتولت الحكم بعد الثورة مباشرة وزارة مدنية ، وعلى أن تكون انتقالية وللتمهيد لدعوة آخر « برلمان » ولاستئناف الحياة الديمقراطية فى حماية الثورة ·· وكان هذا يعنى عودة الوفد ، وقد ذهب الملك وسقط النفوذ البريطانى ولم يعد هناك من يقبل حكومة الأغلبية ويهدد الديمقراطية ، ولكن فوجئت الثورة برفض الوفد لقانون الاصلاح الزراعى ، وكان حجر الزاوية فى برنامجها ، وكان سكرتير الوفد من كبار الباشوات الاقطاعيين وظل يماطل ويناور مفضلا مصالحه الطبقية على الانضمام لهذا التحول التاريخى وانضم « الباشوات » الوطنيون فى الوفد الى باقى الملاك والاقطاعيين الموالين لمقاومة قانون الاصلاح الزراعى ٠

وانحازت الوزارة المدنية الى الملاك ، وعرقلت اصدار قانون الاصلاح الزراعى ، حتى لم يعد بد من اقالتها ، ومن تولى العسكريين السلطة مباشرة لاصدار القانون ولحماية برنامج الثورة ٠

ولم يكن هذا اختيارا للحكم « العسكرى » بل اجراء « ثوريا » ضروريا ، ولكن دعت الثورة الى ترشيد النظام الحزبى وتطويره ،

وأن ينتهي دوره القديم ، من الصراع الحزبي لأجل السلطة الى تقديم البرامج والحلـــول البديلة للمشــــاكل ، والى الاحتكـــام الديمقراطي السليم للشعب ، واستجابت الأحزاب سريعا ببرامج تقليدية أو ملفقة ، ولكن لم تغير من مواقفها ٠

لم يتسامح الوفد في عدم تسليمه السلطة واتسعت الجفوة مع وبين الثورة وتفاقم الشـــك وجاءت موافقته المتأخرة على قانون الاصلاح الزراعي لتبدد كل الثقة ٠

وانتحل الاخوان المسلمون الثورة ، وقـرروا فرض وصاية عليها وطالبوا بحق التصديق والرجوع اليهم في كل السياسات والتشريعات وأن يعلن حكم اسلامي ، لم يقدموا له أي برنامج سوى أن يبدأ باعلان الحجاب على النساء ٠

وكان الشيوعيون أكثر من حزب أو تنظيم ولم يكونوا قوة سياسية ولكن قوة فكرية ، وقد اختلفوا في « تشخيص » الثورة وفي الموقف منها ، وأيدها البعض كثورة وطنية يتولون توجيهها وتطويرها ، ورفضها البعض الآخر كديكتاتورية عسكرية فاشية قامت لاجهاض الثورة الشعبية التي كانوا على وشك القيام بها ، ودعوا « البروليتاريا » للاطاحة بها ٠

وكان هناك حزب اشتراكي ديمقراطي صغير عالي الصوت ، بدأ حزبا فاشيستيا نازيا ، ثم تحول فجأة بعد نهاية الحرب العالمية الثانيـــة الى حزب اشتراكي ديمقراطي ، يستلهم حزب العمـــال البريطاني وينقل عنه نقلا كاملا ، وقد أيد الثورة على أن يصبح زعيره « الأب الروحي » لها ٠

ووسط هذه الدوامة كان الحكـــم العســكري هو الضمانة الوحيدة للاستمرار والاستقرار ، وازدادت الهـــوة بين الثـــورة والأحزاب حتى وصلت الى القطيعة الكاملة ٠

وأقامت الأحزاب فيما بينها « جبهة وطنية » لمقاومة الثورة ولاسقاط الديكتاتورية العسكرية وتحالف الوفد والاخوان المسلمون والشيوعيون الذين لم يتحالفوا قط ضد الاحتلال البريطاني وأذاعوا برنامج الجبهة وردت الثورة باعلان الغاء الأحزاب والغاء دستور سنة ١٩٢٣ ، وفرض فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات ٠

وواصلت الأحزاب المقاومة واستطاعت أن تدبر الأزمة التى سميت بأزمة « مارس » واستقطبت الأحزاب قائد الثورة « محمد نجيب » وزعيم الجناح اليسارى « خالد محيى الدين » وانشقت الصفوف ، وسارت المظاهرات فى الشوارع تهتف ضد الثـورة وتهدد الموقف بحرب أهليـة ، وقـرر عبد الناصر « العودة الى الثكنات » وتسليم السلطة الى الحلف الجديد ، ولكن هب العمال وأعلنوا الاضراب العام ونزلوا الى الشارع حتى عادت « الثورة » وسقطت الأحزاب ، وانتهت من حياة مصر السياسية ٠

ورفض الاخوان المسلمون النتيجة ولم يبق سـوى أسلوبهم القديم والذى قادهم دائما الى الكارثة وهو الارهـاب والاغتيال الفردى ، وقاموا بمحاولة اغتيال عبد الناصر فى الاسكندرية ٠

وكانت هذه نقطة تحول ذات نتائج حاسمة انعكست على كل « مسار » الثورة ٠٠ وهى تكريس سلطة العسكريين وبداية « قيام » « بورجوازية » عسكرية تهيمن على السلطة ٠٠ ثم تضخم أجهزة الأمن وازدياد نفوذها زيادة مضطردة لمواجهة « العنف » واعلان ارهاب الثورة لمقاومة ارهاب أعداء الثورة ، وأضاف الشيوعيون ذرائع وحججا لهذه الأجهزة وذلك باتحاد كل الفرق والفصائل الشيوعية العديدة حول شعار واحد هو الاطاحة بالفاشية ، وذلك ضد كل موازين القوى وضد أى فهم « ماركسى » صحيح ٠

* * *

ولم يفقد عبد الناصر ـ مع كل هذا ـ ثقته فى الديمقراطية وفى أنها النظام الأفضل ، وفى أن تعبئة الجماهير وتنظيمها هو مصدر قوة أى شعب ، وهو الامتحان الحقيقى لاى ثورة ، وهو أيضا الحماية الوحيدة لأى نظام ٠٠ وكان هذا محور كل خطبه وأحاديثه ، وكل سياساته وتصرفاته ٠٠ وذلك على عكس كل الدعايات الضخمة المحمومة التى قامت ولا تزال قائمة ٠

وأصبحت قضية الديمقراطية هى البحث عن شكل جديد ملائم ووسط محيط من المتناقضات ٠

وفى البداية قامت « هيئة التحرير » وكانت تنظيما بدائيا وتجميعا شكليا ، حشدت فيه كل الفرق والقوى لصد « مؤامرة » الأحزاب وكان لابد أن تنتهى بنهاية الأزمة ٠

وقام « الاتحاد القومى » ليكون تنظيما سياسيا يجمع كل الطبقات « الوطنية » ويحقق الوحدة التى شتتتها الأحزاب ومزقها الصراع الحزبى ٠

وامتد هذا التنظيم الى سوريا بعد الوحدة ليقوم بنفس الدور هناك ٠

وثبت فشل هذا التنظيم وعجزه بعد اختيار الاشتراكية وبعد الانفصال ، وأعلن عبد الناصر أن التنظيم السياسى الصحيح لا يمكن أن يجمع طبقات متناقضة المبادىء والمصالح ، وأنه لا يمكن أن يجتمع الاقطاعيون والرأسماليون مع العمال والفلاحين فى تنظيم واحد ٠ وأعلن أن حماية الاشتراكية لا يقوم بها الا تنظيم يجمع الطبقات والفئات صاحبة المصلحة فى الاشتراكية ٠

وقد ولدت الديمقراطية الاشتراكية ميلادا شعبيا وثوريا فريدا فى حوار عام بين عبد الناصر وبين مؤتمر عام للقوى الشعبية ، وطرحت فيه كل القضايا والمشاكل وانتهى الى « ميثاق » يضع الأسس الفكرية والى شكل جديد للتنظيم هو « الاتحاد الاشتراكى » ٠٠

وأكد عبد الناصر مع هذا أن الاتحاد الاشتراكى ليس هو نهاية المطاف ، وأن التجربة سوف تقود الى أشكال أفضل ، وحدد رؤية مستقبلية لمصر تقوم على ثلاثة أحزاب : حزب « بورجوازى » للرأسمالية الوطنية ، وحزب شيوعى للنخبة الماركسية ، وحزب اشـتراكى يكون هو حزب الأغلبيـة والعمـود الفقـرى للتجربة الديمقراطية الاشـتراكية . وقد اصـطدمت التجربة الديمقراطية بعقبات ثلاث رئيسية :

١ ـ البورجوازية العسـكرية التى تكونت فى السـلطة والتى أصبحت شبه طبقة تستميت فى المحافظة على امتيازاتها وتقف حجر عثرة أمام أى نظام سياسى شعبى يردها الى مكانها الصحيح ، والتى لم تسقط الا بعد حرب ١٩٦٧ .

٢ ـ ان تكوين التنظيم السياسى كان يتم من موقع السلطة مما أتاح لكثير من البيروقراطيين أو الانتهازيين أن يتسللوا اليه وأن يجمدوا حيويته .

٣ ـ ان عبد الناصر كان القيادة السياسية والزعامة الوحيدة التى يمكن أن تستجيب لها الجماهير لينظمها ولكنه استغرق فى المهام الكبرى والأحداث المتلاحقة التى لم تترك له الفرصة لكى يقوم بهذه التبعة التى كان يجب أن تتقدم كل التبعات . وتبقى قضية الأجهزة ، وخاصة المخابرات ، وبعد ما نشر من أوراق ووثائق ، وبعدما انكشف من نشاط الأجهزة الأمريكية والاوربية والاسرائيلية والعربية وما تأكد من فظاعة وبشـاعة ما كانوا يدبرونه ، لا يملك أحد الا أن يحس بتقدير للمخـابرات المصرية التى استطاعت أن تحمى النظـام وأن تحمى شـخص عبد الناصر طوال ثمانية عشر عاما ازاء هذه الأجهزة الوحشية .

وقد حدث تجـاوزات ، لا شك ، ولا يبررها أحـد ، ولكن لا تقارن بشىء مما حدث فى « الديمقراطيات » الكبرى وكانت فى

مصر فى أضيق نطـاق ، ولم يجـد الذين أثاروا الضجة حول « ارهاب الأجهزة » ما يشهرون به ضد النظام سوى قضيتين : احداهما ضد صحفى لا يشك أحد فى مصر أو فى الشرق الأوسط فى ادانته ، والثانية قضية أسرة من « الاقطاعيين » ذات تاريخ حافل بالجرائم والمآسى ٠٠ آخرها كان مقتل أحد القادة السياسيين المحليين الشبان ٠ ولم يجـدوا قضية أخـرى تستطيع أن تقـدم للمحاكم أو يثبتوا بها دعاواهم المسعورة المحمومة ٠

وفى هـذا الاطار ينبغى فهـم قضية الديمقراطية فى مصر وانصاف عبد الناصر من تهمة لا يمل خصومه وأعداؤه تكرارها والاصرار عليها ٠

القضية العربية :

القضية العربية قضية واضحة وبسيطة ، ولا يحتاج الانسان اذا كان صادق النية الى عناء كبير لكى يؤمن بالوحدة العربية أو يقتنع بها أو على الأقل يدرك حتميتها ٠٠ ويستطيع الانسان أن يكون براجماتيا أو أيديولوجيا أو ميتافيزيقيا ، وأن يكون يمينيا أو يساريا ، وفى نفس الوقت وحدويا عربيا ٠

وتحت أى المذاهب والتعـريفات ووفق أى النظـريات والأيديولوجيات ، فان الأمة العربية قائمة لا تحتاج الى اثبات أو بالطبع الى اعادة تكوين٠

ولا نظن أن هناك على خريطة العالم أمة ممزقة تملك مثل مقومات الوحدة التى تملكها الأمة العربية ٠

وفى الهند سيل من اللغات والديانات والعصبيات ، ولكن تقـوم دولة واحدة وهى وحـدة فى ظل كل هذا التنوع ٠٠ كما سماها نهـرو ٠

وفى الصين عدد أقل ولكنه ليس قليلا من اللغات والقوميات والديانات ولكن تقوم دولة واحدة حاربت أكثر من مائة وخمسين عاما من أجل حريتها ووحدتها التى لم تتنازل عنها قط ·

وفى الاتحاد السوفيتى الآن خمس عشرة جمهورية كاملة ، ولديها ضعف ـ ان لم يكن أضعافا ـ من الأقليات والقوميات وأقاليم الحكم الذاتى ، ولكن تقوم دولة واحدة فى ظل اتحاد لا ينازع أحد فى وحدتها ·

وفى الولايات المتحدة الأمريكية « بوتقة » هائلة تنصب فيها قوافل من كل الشعوب والأجناس والقارات ، ولكنها « تنصهر » لتخرج شعبا واحدا ودولة متجانسة يصدق العالم كله على وحدتها ·

وبعد قرون طويلة حافلة بالأحداث اكتشفت أوربا أن مصيرها النهائى لابد وأن يكون الوحدة سواء دولة أوربية أعظم أو اتحادا كونفدراليا من دول أوربية أو حتى ولايات متحدة أوربية ، وذلك رغم كل الميراث المعقد الثقيل من اللغات والثقافات والعصبيات ومن الحروب الوطنية والطبقية والعالمية ·

وتتزاحم الأسئلة والشكوك ويشتد الجدل والخلاف اذا ما دار البحث حول العرب ·· وتكفى قراءة بسيطة للتاريخ القريب لكى يقتنع الانسان ، اذا كان صادق النية ، أن تمزيق العرب وتشتيتهم كان قوة خارجة عن ارادتهم ، ولم يكن من صنعهم ، بل وأن لا خلاص لهم الا اذا استردوا أنفسهم باسترداد وحدتهم ·

وربما لم تعان أمة على خريطة العالم ما عاناه العرب ، وقد بدأ الاستعمار الحديث ضدهم ، ووقعت أشد وطأته عليهم ، وكان هدف الاكتشافات الجغرافية الكبرى التى بدأ بها الاستعمار ، الالتفاف حول ظهر « الاسلام » أى العرب وانتزاع تجارة الشرق من أيدى العرب ·· وبدأت ذلك البرتغال وتتابعت كل الدول

الاوربية فى سباق محموم دام أكثر من أربعة قرون للبطش بالعرب وقهرهم والاستيلاء على أرضهم أو على الأقل انتزاع شريحة دسمة منها ٠

وقد وقعت أكثر الشعوب المستعمرة تحت « وطأة » واحدة ، ورسفت فى اغلال استعمار واحد ، ولكن العرب كانوا نهبا للجميع وتوزع عالمهم ووطنهم أسلابا وغنائم نالت نصيبها كل دولة استعمارية وتقاسمت بريطانيا وفرنسا وايطاليا وأسبانيا المغرب والمشرق ، وعقد الاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا أن تقايض المغرب مقابل مصر ، وبعد استكمال وحدة ايطاليا منحت ليبيا لتكون أرض حرام بين الامبراطوريتين الكبريين ، وحينما توحدت المانيا أصبح لابد لها من امبراطورية تابعة ، أعلنت عن عزمها الزحف شرقا ومن برلين حتى بغداد ٠

وحينما سقطت السيادة الأوربية وغربت عنها الشمس ، بدأ القرن الأمريكى ، وأصبح ركنا جوهريا واستراتيجيا فى استتباب سيادته ، السيطرة الخالصة على العالم العربى ، أصبح لدى العرب « كنز » لابد من الاستئثار به ٠٠ وهو البترول ٠

وفرضت على العرب كل أنواع النظم والقيم والحضارات والثقافات ، وقاسوا كل أنواع القهر والبطش وتفنن كل « سيد » فى أساليبه لاستنزافهم وطمس ذاتيتهم ومقوماتهم ٠٠ أرادت فرنسا تحويل الجزائر الى مقاطعة فرنسية لابد أن تتكلم الفرنسية وتعتنق الكاثوليكية ويحرم عليها دراسة لغتها أو ممارسة دينها ٠٠ وأقامت بريطانيا موكبا زاخرا من السلطنات والامارات والممالك ومن المشيخات والمحميات لكل منها « مستشارة » البريطانى ٠٠ وحينما تعذر هذا أقامت واجهات ديمقراطية أو توقراطية أو ثنائية يحكمها حكما غير مباشر فخامة المندوب السامى ٠ وبعد الحرب العالمية الأولى اجتمع ثلاثة بريطانيون : تشرشل ولورنس وهوجارت

وقسموا « المملكة العربية » التى وعدوا بها حلفاءهم العرب ، ووزعوها شـرائح بين الفرنسـيين والصهاينـة والأسر المالكـة الموالية ٠

وبعد الحرب العالمية الثانية حدث للعرب ما لم يحدث لأى شعب آخر ٠٠ فقد طرد شعب عربى بأكمله ليتشرد ويتشتت حتى يحل محله شعب آخر « مختار » اختار هذه الأرض ، ولتقوم دولة عنصرية كل رسالتها قمع العرب أو محوهم لو أمكن ٠

ومنذ وضع الأمير البرتغالى هنرى الملاح استراتيجية الالتفاف حول ظهر الاسلام حتى أشعل هنرى كيسنجر الحرب الأهلية فى لبنان والحرب الاقليمية بين المغرب والجزائر ، أصبح محور كل السياسة والاستراتيجية والثقافة والتجارة ، هو تجريد العرب من كل حقوقهم المادية والروحية واثارة كل أنواع الصراعات والخلافات الطائفية والمذهبية والعصبية ، وأصبح أمن أوربا ورخاؤها معتمدا على فقر وتشرد العرب ٠

وقد نال مصر النصيب « الأكبر » من هذه الاستراتيجية ، لأن مصر « مفتاح » المنطقة ولابد أن يظل هذا المفتاح آمنا محفوظا فى موضع معزول ناء ٠٠ لابد أن تجرد مصر من قوتها وثروتها ، وأهم من هذا شخصيتها وأن تصطنع لها شخصية أخرى ٠

وأصبح الاستيلاء على المنطقة يبدأ أولا بالاستيلاء على مصر ، وقال نابليون : ان المجد يصنع فى الشرق بالاستيلاء عليه ، ومن يريد الاستيلاء على الشرق لابد وأن يستولى على الشرق الأوسط ، ومن يريد أن يستولى على الشرق الأوسط لابد أن يستولى على مصر ، ولهذا فان مصر هى أهم بلد فى العالم ، وكانت هذه كلمة حفظها عن ظهر قلب « كرومر » وقدم بها كتابه « الاستعمارى » الشهير عن مصر ٠٠ وتدفقت مكتبة زاخرة من الأبحاث والدراسات والنظريات انكب عليها « نخبة » من المؤرخين والمستشرقين والعلماء

« السياسيين » لاثبات حقيقة جوهرية هى أن المصريين « ليسوا عربا » ·

وهذه مقولة ينفيهـا التاريخ والواقع بلا صعوبة أو جهـد كبير ·

وقد اعتنقت مصر الاسلام وتكلمت العربية بعد دخولها فى الاسلام ، وانصهرت تماما فى الدولة العربية الاسلامية الكبرى ، وأصبحت أحد أعمدتها الرئيسية ، وحينمـا سقطت بغـداد فى المشـرق وسقطت قرطبة فى المغـرب أصبحت القـاهرة عاصمة الحضارة والثقافة العربية الاسلامية وحامية تراثها ··

وقادت مصر ووقعت عليها مسئولية الدفاع عن هذه الحضارة ضد المغول القادمين من الشرق ثم ضد الصليبيين القادمين من الغرب ، واستمر هذا دورها التاريخى ضد العثمانيين الذين أقاموا امبراطورية باسـم الاسـلام ، ثم ضـد الاوربيين الذين جاءوا ليستعمروا باسم التجـارة وباسم الحضارة الجديدة ، وما زال هذا الدور قائما ضد آخر الاستعماريين الذين يعملون تحت راية « الحماية من الشيوعية » ·

وقد ولدت القومية العربية « الحديثة » فى مصر ·· وكانت ولادة شرعية « وثورية » ، وحينما جاء نابليون ليقيم امبراطورية الشرق جاء ومعه كتيبة من علماء فرنسا وحملوا العلم والفكر الحديث ، وحمل نابليون الى مصر بذور الثورة والقومية المعاصرة التى حملها الى كل ارجاء أوربا والتى بدأت عصرا « لقوميته » ، وكانت احاديث نابليون مع العلماء فى مصر ، وفى الديوان الذى اقامه ، كثيرا ما تدور حول القومية العربية وكيف يرضى العرب الذين يحملون رسالة الاسلام أن يخضعوا لسلطان عثمانى فاسد وأن يحكموا من عاصمة بعيدة « مدنسة » هى إسطنبول ، وسألهم مرة « هل لو بعث النبى محمد مرة أخرى سوف يرضى عن هذا

الحال » وان لا يكون العرب هم السادة وليسوا الترك ، وكانت مناقشات علماء الحملة الفرنسية مع علماء الازهر تدور « حول كل أمور الدين والدنيا » وعلى رأسها هذا « الأمر » ٠

وبعد جلاء نابليون سرت الشرارة وكتب القنصل الفرنسى يصف القاهرة أنها « باريس سنة ١٨٧٩ » ، وخرج الشعب المصرى ليفرض لأول مرة فى تاريخ الامبراطورية العثمانية واليا اختاره بارادته وضد ارادة السلطان وهو « محمد على » ٠

وقد كان محور سياسة واستراتيجية ودبلوماسية محمد على وابنه ابراهيم اقامة الدولة العربية العصرية « الكبرى » ، والتى تحل محل الامبراطورية العثمانية « المريضة » ، وتحمى العرب والمسلمين والشرق من غزو « أوربا » ، وقد أرسل محمد على البعثات من الشبان المصريين الى جامعات أوربا ، خاصة الى فرنسا ، وعاش هؤلاء الثورة السياسية الأوربية والثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر واستوعبها كثير منهم وعادوا بها الى مصر ليطبقوها ، واستقدم محمد على سيلا من الخبراء والعلماء ومن القادة الضباط من أوربا ، وكان كثير من هؤلاء من « السان سيمونيين » أتباع المفكر الاشتراكى سان سيمون ، كانوا يبحثون عن ميدان لتجربة مبادئه ، وكان كثير من الضباط من ضباط نابليون السابقين أو من الضباط الايطاليين والبولنديين « الثوريين » كونوا جيشا « وطنيا » من الفلاحين المصريين ، كان أقوى جيش فى ذلك العصر ٠

وقد وصلت الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا الى « القسطنطينية » لتفرض الدولة العربية من هناك ، وكان ابراهيم يوقع أوامره العسكرية « قائد الجيوش العربية » أو « سارى عسكر عربستان » ، وتدافعت الوفود من كل أنحاء العالم العربى تبايعه وترى فيه « البطل العربى ومحرر العرب الحديث من العثمانيين والأوربيين » ٠

وقررت أوربا بقيادة مترنيخ وبالمرستون أن محمد على وابنه ابراهيم خطر على أوربا ، وقرروا أن قيام دولة عربية عصرية عسكرية وصناعية وبقيادة مصر خطر عام يتهدد كل مصالح أوربا وأن هـذه المصالح تحتم الحفـاظ على الامبراطورية العثمانية « مريضة » وحتى تزداد مرضا وأن لا تقوم بدلا منها دولة حضارية عصرية ، وقال بالمرستون قولا رسب فى ضمير مصر وكان « لو كان محمد على يريد اقامة دولة داخل حدود مصر لتسامحنا معه ، ولكنه يريد اقامة دولة عربية كبرى وهذا ما لا يمكن التساهل فيه » ·

وأصبحت استراتيجية « أوربية » ثابتة ولم يقتنع المصريون بالطبع ·

وقد كانت الثورة العرابية فى أواخر القرن الماضى هى ذروة الوطنية المصرية وكان شـعارها « مصر للمصريين » ولكن بين وثائقها الهـامة رسـالة بعث بها مندوب السلطان العثمـانى فى القاهرة الى اسطنبول تقول « ان العرابيين يهدفون الى اقامة وحدة عربية تنفصل عن الدولة » ، وعلى هذا الأساس أعلن السلطان عصيان عرابى ، وانضم الى الخديوى والى البريطانيين للقضاء على « العصاة » ·

وفى التاريخ الحديث القريب ، كتب الكثير عن « الوفد » حزب الوطنية المصرية ، وأنه كان مصريا فرعونيا وأن سعد زغلول زعيمه قال فى حديث له عن العروبة : ان صفر زائد صفر يساوى صفر · وان كفاحه ظل فى حدود مصر ولم يخرج منها ، وينفى هذا تماما أن « مكرم عبيد » سكرتير عام الوفد المصرى وابن سعد ، كما كان يسمى ، وزعيم الأقباط الوطنيين ، وقف فى القدس فى حفل أقامته له الهيئة العربية العليا سنة ١٩٣٠ ليعلن بأعلى صوته « نحن عرب ·· نحن عرب ·· نحن عرب » ·

ولقد كان للوفد مواقف واضحة من كل القضايا العربية وخاصة قضية فلسطين ، وكان الوفد وزعيمه مصطفى النحاس على صلة وثيقة بكل الأحزاب الوطنية العربية وبكل القادة العرب وخاصة الفلسطينيين ٠

وقد تكونت الجامعة العربية على يد الوفد وفي حكومته ، وأراد الوفد منذ البداية تحويلها من تكتل نظم عربية موالية كما كان يريدها أنطوني ايدن ، وزير خارجية بريطانيا ، الى جامعة الكفاح الجماعي للعرب ، وظل هذا محور سياسته العربية وصراعه المستمر مع بريطانيا ٠

ولهذا لم يأت عبد الناصر من « فراغ » ، ولم يعلن نفسه عربيا بقرار ، وقد تفتح وعيه السياسي كما روى في مظاهرة خرجت تهتف بسقوط وعد بلفور ، ثم بقراراته ، ثم اكتمل هذا الوعي بالتجربة المريرة العميقة في حرب فلسطين ٠ ويروي أحد رفاقه من الضباط الأحرار في مذكرات نشرت « كان عبد الناصر نهما للقراءة وكان لا يرى الا ويحمل كتبا معه ، وقد وضع لنا نظاما لكي يقرأ كل منا كتابا ثم نناقشه معا ، وذات يوم دخل ومعه كتاب ضخم من خمسة أجزاء ، وقال ان هذا من أهم الكتب التي يجب أن نقرأها ونناقشها معا ، ووزع على كل منا جزءا منه ، وكان عنوان الكتاب (الثورة العربية) بقلم أمين سعيد ، ولاول مرة نرى صورة حقيقية متكاملة للثورة العربية التي قادها الشريف حسين وأولاده خلال الحرب العالمية الأولى ، وكانت تحوط بها الشكوك كثيرا في مصر ، وذلك لانضمام العرب الى البريطانيين أعداء مصر ٠٠ وأدركنا لأول مرة حقيقة المشكلة في فلسطين ، وكانت آراء معظم الضباط مستمدة من ضابط مصري وطني حارب مع الأتراك ، هو محمود لبيب ، وكان يراها قضية دينية : يهود ومسلمين ، ولكن بعد قراءة ومناقشة كتاب أمين سعيد وضحت

لنا كقضية قومية ضد الاستعمار البريطانى ، وازداد حماسنا لها ، وكان بداية تطوع كثيرين منا للاشتراك فيها » ٠

وعلى كل ليس هناك تناقض بين أن يكون الانسـان وطنيا مصريا وقوميا عربيا فى نفس الوقت ، والوطنية المصرية رافد من روافد المجرى القومى الكبير ، ويمكن أن يكون العربى مصريا أو جزائريا أو مغربيا أو عراقيا يحب قطره ، ولكن فى اطار أمته الكبيرة ، وهذه هى الوحدة فى اطار التنوع ، والفرعونية التى يتهم بها المصريون كثيرا أو ينسبون اليها كانت ظاهرة طارئة ٠٠ كانت مبالغة فى تأكيد الذات المصرية وأن مصر شعب له وجود وله تاريخ واستمرار يرجع الى آلاف السنين ، وكان هذا ردا على كرومر والمدرسة البريطانية التى كانت تقـول ان مصر حقيقـة جغرافية وأن ليس هناك شعب فى مصر ، وكان كرومر يؤكد دائما بازدراء أن المصريين خليط متنافر متناقض من كل الشعوب والأديان والأقليات ولا يمكن أن يصبحوا شعبا ٠

وحينما اكتشـفت الآثار الفرعونية التى بهـرت العالم فى العشرينات اتخذها المصريون حجة لدحض المقولات الاستعمارية واثبات نسبهم الى ذلك التاريخ المجيد ، ولابد ان كان هناك من أراد استغلال التراث الفرعونى ضد العروبة ، وفى ذلك الوقت كانت القضية الفلسطينية قد بدأت أصداؤها تتجاوب فى مصر ، وبدأ الوفد يتحرك لاتخاذ موقف منها ٠

« والفرعونية » على أى حال ليسـت نقيضا للعروبة لأن العرب لا شك ورثة شرعيون لكل الحضارات القديمة والوسيطة التى ازدهرت فى وطنهـم ، والحضـارات الفرعونية والأشورية والبابلية هى تراث ثمين يملكه العرب المعاصرون وعليهم اعادة اكتشافه ٠

ولهذا لم يعلن عبد الناصر نفسه عربيا لأن تراثا عميقا كلن يكمن في أعماقه ·· توارثته أجيال من قبله ·· وربما يكون ما فعله هو اعادة اكتشافه والاضافة اليه ·

وقد قرأ عبد الناصر الخريطة « الجيوبوليتكية » للعالم العربى ، واكتشف كيف يكون موقع العرب الاستراتيجى والحضارة وسيلة لخلاصهم بعد أن ظل عدة قرون مبررا لاستعبادهم ·

وقد كان عبد الناصر ـ لا شك ـ وطنيا مصريا ، ولكن وطنيته لم تكن تعنى مصر أولا وأخيرا أو مصر فوق الجميع ، ولكن أن يبدأ الألف ميل بتحرير مصر وبتحرير القوة الذاتية لمصر ، وأن نتحرر ونتعلم ونتصنع ونتسلح ·· ولهذا نصبح طليعة لتحرر العالم والأمة الكبرى التى ننتمى اليها وهى الأمة العربية ·· لم يكن ذلك حماية لمصر أو خلق سوق لصناعة مصر أو مجال حيوى لسيادة مصر ولكن لأن الحرية العربية لا تتجزأ ولأن الرخاء لا يتجزأ ·· لم يكن عبد الناصر يريد أن يحمى مصر باقامة حزام أمن عربى حولها ولكنه كان يرى أن الأمن الجماعى ، وهو يكمن فى تحرير الارادة الجماعية وانطلاق القوة « الجماعية » للعرب ، وأن أمن أى بلد عربى هو فى أمن كل بلد عربى آخر ولن يتحقق أمن العرب الا اذا أصبحوا قوة متناسقة متكاملة موحدة فى مواجهة عالم أصبحت تحكمه القوى العظمى والأعظم ·

ولم يكن عبد الناصر يريد أن يفتح سوقا عربية للصناعة المصرية ولكن تصفية الحواجز التي قامت بين اقتصاد متكامل تكاملا نموذجيا ، ويحمل كل مقومات وامكانيات تحقيق الوفرة والرخاء العام للجميع ·· أن لا يسخر الاقتصاد العربى لخدمة المستغل المستثمر الأجنبى والمحلى بينما تتضور الجماهير العربية وتعيش وتموت محرومة ·· لا يمكن أن يسخر بترول العرب لبناء مجد أوربا أو مجد اليابان أو لزيادة ثراء أمريكا بينما يكتب على العرب التخلف والفقر الدائم ·

ولم يكن لدى عبد الناصر صيغة مقررة للوحدة يريد أن يفرضها ، وكان يؤمن ، أكثر من أى أحد آخر ، أن الوحدة معركة طويلة المدى ، وانه لابد من بحث ومن تجربة ولابد من خطأ ، وذلك حتى يبدع العرب طريقهم الخاص والخلاق للوحدة ، وهو ليس نقلا لأى طرق أخرى غربية أو شرقية ·· بل يفيد منها ويضيف اليها ، ولكن لابد للعرب فى النهاية من أن يحققوا هذه الوحدة لأن ليس لهم مصير آخر ·

ولكن مهما كان الطريق الا أن الوحدة الحقيقية والتى يمكن أن تبقى هى الوحدة التى تعبر عن ارادة شعبية جماهيرية حقيقية عن أختيار واع للشعب الحقيقى « وحلف طبقاته العاملة » أى الفلاحين والعمال والمثقفين والرأسماليين الوطنيين ·· هؤلاء أصحاب المصلحة الحقيقية فى الأمن والرخاء ، وقد قامت التجربة على أكتاف الفئات والطبقات القبلية والاقطاعية والرأسمالية الكبيرة ، وهم الذين يتشبثون بها ·· ولهذا لا يمكن أن تقوم الوحدة الا لصالح « الأمة » الأخرى والعرب أمتان على حد قول دزرائيلى ··

لم تكن الوحدة بالنسبة لعبد الناصر هى مجرد تجميع العرب ولكنها كانت « وحدة الهدف لا وحدة الصف » ، ولهذا فانها لم تكن تتحقق بمجرد الاستقلال أو جلاء الاحتلال ورفع العلم ، ولكن بالتحرر الحقيقى لارادة الأغلبية ، وذلك بتصفية الاستغلال والطبقات والفئات المستغلة ·· ان الطريق الى الوحدة يبدأ بالحرية فالاشتراكية فالوحدة ·· وهو لم يقل هذا سرا أو فى غرف مغلقة ولكن فى كل أحاديثه وخطبه عن الوحدة وفى وثيقة من أهم وثائق الثورة وهى مباحثات الوحدة الثلاثية سنة ١٩٦٣ ·· ولم يكن عبد الناصر يقول شيئا ويفعل شيئا آخر ، ولكنه كان يرى أن هناك أشكالا مختلفة من التعايش بين النظم العربية لابد أن تفرضها ضرورات العمل المشترك ، ويمكن أن تكون مقدمات أو خطوات أو

أن تستخلص منها العبر والدروس ، ولكن الوحدة العربية الحقيقية هى الوحدة التي تتم بين جماهير الأمة العربية التى تملك ارادتها كاملة والتى لا تناقض قط أو تعارض بين مبادئها ومصالحها والتى ليس لها مصير أفضل من الوحدة ٠ وقد وقع عبد الناصر فى أخطاء كبيرة وصغيرة ، وليس هناك زعيم أو قائد معصوم ، ولكن لا أحد يذكر كثيرا أن عبد الناصر كان لديه الشجاعة أكثر من أى زعيم آخر فى أن يعترف بأخطائه وأن يتعلم منها ٠٠ وهو قد اعترف بأخطائه بعد الانفصال وقام باعادة بناء النظـام كله ، وقد كان اعترافه « دراميا » مسهبا بعد النكسة عام ١٩٦٧ ، وأكد على ضرورة « الثورة على الثورة » ، وحينما خرجت مظاهرات الطلبة سنة ١٩٦٨ تحتـج على بطء التغيير ، لم يقمعهـا ولكن بررها واستجاب لها ٠

وحساب عبد الناصر عن القضية العربية والوحدة العربية ينبغى أن لا يكون حسابا جزئيا عن هذا الخطأ أو ذاك ولكن حساب ختامى شامل عن القضية العربية قبل ثورة يولية ١٩٥٢ والقضية العربية سنة ١٩٧٠ ، وهو حساب لابد أن يكون ايجابيا ٠٠ ان لم يكد مجيدا ٠

وقد كان أعظم ما حققه عبد الناصر أنه خرج بالقضية العربية من الأزمة الخانقة التى انتهت اليها واجتـاز بها حاجز اليأس والفشـل الذى ارتدت وراءه ، وفى الخمسينات انتهت الثـورة المصرية الى حريق القاهرة والى اقالة الحكومة الوطنية وتولى القصر كل السلطة وبداية بطش وتصفية وحشـية لكل القـوى الوطنية ، وفى كل أرجاء العالم العربى كانت الانتفاضات والثورات التى توالدت منذ نهاية الحرب قد أحبطت أو أجهضت أو قمعت فى محيط من الدم ، وكانت القوى الوطنية والديمقراطية فى انحسار ومعركة دفاع ازاء تشبث الاستعمار القديم بالبقاء وزحف استعمار

جديد بمشاريع واسعة المدى ، وبينما اشتعلت الثورة فى آسيا وتحررت الهند والصين تخلف العرب ·

وقد قاد عبد الناصر « الثورة » فى عصر جديد معقد متلاطم يختلف تماما عن أى عالم سواه ، وهو عصر الدول الأعظم والكتل الايديولوجية السياسية الاستراتيجية والصراع « الكونى » بينهما وعصر الذرة والثورة التكنولوجية وعصر ثورة المستعمرات فى القارات الثلاث المستعمرة ·

وحمل عبد الناصر التبعة وقام بالمهمة وأثبت أهليته وجدارته واستجاب له العرب حتى آخر مواطن ، وخرج للعرب زعيم وبطل قومى يمثل عبقريتهم وفضائلهم ، ولم يكن هناك حدث من الأحداث لا يبدأ من القاهرة ويحسمه عبد الناصر ·

وكانت التغيرات التى حدثت فى خريطة العالم العربى ، وفى الواقع العربى ، هى أكبر وأعمق التغيرات التى تمت فى تاريخه الحديث كله ·· بل لقد غير العرب كل موازين القوى الدولية القائمة ، انتهت الامبراطورية البريطانية فى السويس ، وانتهت الامبراطورية الفرنسية فى الجزائر ولم تستطع الولايات المتحدة الامريكية أن تملأ الفراغ الذى كانت تحلم بملئه ·

قامت القوة العربية ، ووضع العرب أقدامهم وثبتوها على مسرح التاريخ « الحديث » ، واصبحت الوطنية المصرية هى العلاقة مع بريطانيا علاقة الند للند وليست علاقة السيد والعبد ، ولم تعد القومية العربية هى دولة عربية فى اطار الغرب ، ولكن تجاوزت ذلك الى نسق أعلى وأقوى ·· الاستقلال الكامل لقوة عربية ذاتية خارج اطار ونطاق كل الدول والكتل الأجنبية ·

والتحمت الثورة العربية بالثورة الكبرى ضد الاستعمار فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ليقوم العالم الثالث غير المنحاز ،

وليكون عبد الناصر أبرز ثلاثة قادة لهـذا العالم ، وقد كانت « الثورة العربية » هى الجسر الذى يصل بين الثورة فى اسيا وافريقيا ٠

أصبحت القوة « العربية » جزءا من عالم عريض وقوة ثالثة فى العالم تستطيع أن تواجه القوتين الاخريين أو أن تحالفهما من مركز قرة جماعى ولا يحتكران تقرير مصير العالم ٠

أصبح العرب طرفا فى صنع تاريخ العصر ولم يعد التاريخ يصنع بمعزل عنهم أو على حسابهم ، وازاء هذا السجل يمكن أن تعد أخطاء عبد الناصر تفاصيل ولكن لابد من « مواجهة » أهم هذه الأخطاء والاجابة عن الأسئلة التى اثارها المستر ستيفنس ٠٠

هل كانت الوحدة السورية المصرية فشلا ؟
هل كانت حرب اليمن ورطة ؟
هل كانت حرب ١٩٦٧ تهورا أدى الى الكارثة ؟

هل فشلت الوحدة المصرية السورية ؟

كانت سوريا أول بلد عربى يستقل بعد الحرب العالمية الثانية وكانت سوريا بتراثها وتاريخها مؤهلة لأن تستكمل الدور الذى كان محور كفاحها القومى وهو الوحدة ، استرداد كيانها كاملا الذى فتتته بريطانيا وفرنسا منذ معاهدة « سايكس بيكو » حتى الاستقلال ٠

ولكن ما أن تحـررت سـوريا حتى وقعت بين فكى صراع مستميت بين البريطانيين الذين كانوا يريدون وراثة فرنسا ، وأن تنضم سوريا الى الملك عبد الله ملك الأردن لتقوم مملكة سوريا الكبرى التى تنضم الى العراق « الهاشمى » ليتحقق الهـلال الخصيب ، المشروع العزيز على البريطانيين ، ثم بين الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى كانت تريد وراثة فرنسا وبريطانيا ، خاصة

فرنسا ، وأن تبدأ سوريا لتفك الحصار عن الدولة الجديدة « اسرائيل » ولثورث القاهرة لمشاريع أبعد مدى تشمل كل المنطقة ٠

وبدأت سلسلة من الانقلابات الأمريكية والانقلابات المضادة البريطانية ، وكانت سوريا أول تجربة لنقل انقلابات أمريكا اللاتينية وتحول الاستقلال السورى الى مأساة دامية ٠

وقامت الثورة فى مصر فى ذلك الوقت الحرج ، ولم يستغرق الوقت طويلا لكى تتطلع القوى القومية والديمقراطية فى سوريا الى الحدث الجديد والنظام الثورى الذى قام فى مصر ، ولم يستغرق الوقت طويلا لتقوم علاقات وثيقة تستند اليها فى الاطاحة بآخر الانقلابات « الأجنبية » وتبدأ تاريخا جديدا لسوريا ٠٠ وقام الحلف السورى المصرى تلقائيا وطبيعيا ، وأصبح المحور الذى تلتف حوله كل القوى الوطنية والثورية فى العالم العربى ، وقد كان هذا المحور الجديد هو الذى هزم حلف بغداد الذى قام تحت مظلة الغرب ، وكان هو الذى هزم العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، وكان الانتصار ميلادا جديدا للأمة وللثورة العربية ثم كان هو الذى أبطل النظرية التى خرج بها المستر دالاس بعد العدوان وأطلق عليها اسم ايزنهاور « لملء الفراغ » الذى خلفته هزيمة البريطانيين والفرنسيين ، وقد وقف هذا الحلف مانعا ضد كل الخطط والمشاريع « الاستعمارية » ٠

وبعد فشل العدوان الثلاثى أصبح محور الاستراتيجية الاستعمارية فصم هذا الحلف ، وتركزت كل الجهود وانصبت عليه ٠٠

ونجحت المخابرات المركزية الأمريكية فى القيام بانقلاب فى الأردن أطاح بالحكومة الوطنية هناك ، وأسكرها النجاح واستدارت بعده لتعبىء كل القوى فى الداخل والخارج للاطاحة بالنظام فى سوريا ، وأعدت خطة كبرى اشتركت فيها كل الأطراف ، تركية

وعربية واسرائيلية ، وتولى التنسيق أحد أقطاب المخابرات المركزية هندرسون وعقد مؤتمرا فى أنقرة ليعطى اشارة البدء للقوى التى تمت تعبئتها وتسليحها فى الداخل ٠

ومرة أخرى أصبح استقلال سوريا ـ ان لم يكن وجودها ـ مهددا ، وقام عبد الناصر بالعمل الجرىء الذى لم يخطر للمخططين ونزلت القوات المسلحة المصرية الى سوريا ٠٠ فى حركة سياسية عسكرية بارعة حاسمة ٠٠ انهار بعدها كل أمل فى الانقلابات ٠٠ ووضعت القوات التى وصلت سوريا ـ فى اللحظة المناسبة ـ أول أسس الوحدة ومبرراتها ، وأدى الوجود العسكرى المصرى فى سوريا الى « هستيريا » من التآمر كان لابد أن يؤدى الى قيـام وحدة ٠٠ أصبحت الوحدة محتومة وقضية لسـوريا ، ولم يترك التآمر الداخلى والخارجى للوحـدة أن تتحقق فى ظروف أفضل وبمقومات أصح ، وعلى مدى أطول كما كان يريد عبد الناصر ، والتاريخ دائما لا يسير كما يتمنى صناعه ، ولكن قامت الوحدة ، وكانت وما زالت حدثا فى كل تاريخ العرب ، وصفحة لن ينقطع الجدل والحوار حولها حتى الآن ٠

ولقد كانت الوحدة بين مصر وسوريا تجربة فريدة قامت فى ظل ظروف عصيبة ولم ينقطع التآمر عليها يوما ، وهى لم تدم أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها لا تزال حية وستظل دائما بما قامت به فى هذا العمر القصير :

١ ـ منحت سـوريا الاستقرار الذى لم تنعـم به منذ بدأ تاريخها الحديث بعد الحرب العالمية الأولى ٠

٢ ـ وفرت لسوريا كل المقومات لتقوم بدورها « العربى » وكانت مساندتها للقوات الوطنية والديمقراطية فى لبنان حاسمة فى أن لا يتحول لبنان الى قاعدة لنظرية ايزنهاور الجديدة تحت حكم طائفى ، وساندت القوى الوطنية فى العراق حتى قامت الثورة

التي اطاحت بالنظام الهاشمى ثم أن تسقط حلف بغـداد وانتهت بسقوطه كل الاستراتيجية الاستعمارية الجديدة فى المنطقة ٠

٣ ـ استطاعت ســـوريا فى ظل الوحـدة أن تحقق أعمق التغيرات الاجتماعية التى كانت تتطلع اليها منذ الاستقلال والتى وقف الاقطاع السورى والبورجوازية الســورية الكبيرة ضدها ، وكانت قوانين يوليو سنة ١٩٦١ الاشتراكية فى ســوريا تحقيقا لمطالب متراكمــة منذ زمن طويل لم يستطع أى حزب سياسى أن يحققها ٠

٤ ـ استطاعت الجمهورية العربية المتحدة المكونة من مصر وسوريا ـ رغم كل الصعوبات والتناقضات ـ أن تثبت أن الوحدة العربية حقيقة وأن اسسها صحيحة وأن ما تفجـره من طاقات العرب بلا حدود ، وجسدت حلم الأمة العربية والقوة العربية ولم تنفصم الوحدة لأن السوريين ضاقوا ذرعا بحكم عبد الناصر أو لأن ذلك الحكم كان « متسلطا » أو « استعماريا » أو لأن الواقع المصرى اختلف اختلافا اساسيا عن الواقع السورى ٠٠

ولكن انفصمت الوحدة لأن اليمين السورى وجد فى التغيرات الاجتماعية التى حققتها الوحدة خطرا عليه أشـد من الاستعمار الأجنبى وفضل التحالف معه ٠

ثم لأن اليسار السورى ، كان اقصر نظرا واضيق افقا من ان يدرك الأولويات والضرورات والفرق بين التناقضات الأساسية والتناقضات الثانوية والجزئية ٠

وقد اثبتت الوثائق والحقائق بعدئذ كيف أن الانفصال دبر فى عاصمة اوربية بين المخابرات المركزية والقوى الرجعية التقليدية العتيدة ٠

ولقد كانت هناك اخطار وثغرات فى الوحدة ، كان لا مناص أن تقـع فى تجربة جديدة فريدة ولكن لم تكن هـذه هى سبب

الانفصال أو لم تثبت أن الوحدة العربية مرفوضة أو مجرد وهم لا ينطبق على الواقع ·

ومع ذلك خلفت سنوات الوحدة وراءها « حلما ذهبيا » بقى ولم يزل مسيطرا على خيال سوريا ، ولم يستطع نظام الانفصال أن يعيش أكثر من عامين ، وسقط سنة ١٩٦٣ لتعود سوريا تحت الحاح الجماهير هناك لطلب الوحدة ، وحينما تعثر النظام الذى أسقط الانفصال فى تحقيقها سقط بدوره وقام نظام جديد أعاد العلاقات الوثيقة الحتمية مع مصر ، وكان من بين أسباب حرب سنة ١٩٦٧ ، كما اعترف الاسرائيليون ، أنه لكى لا تقوم وحدة مرة أخرى بين مصر وسوريا ·

هل كانت اليمن ورطة ؟

تبدأ قصة اليمن ، وحتى يمكن فهمها ، منذ اعلان نظرية ايزنهاور ، لم يغفر المستر دالاس لعبد الناصر رفضه أن يملأ « فراغا » فى الشرق الأوسط ، ودعا الملك سعود الى زيارة الولايات المتحدة الأمريكية ، زيارة أحيطت بالحفاوة والترحيب ، وتمت هناك مبايعته زعيما سياسيا وروحيا للعرب وكل المسلمين ، وبديلا لعبد الناصر الذى لابد من ازاحته من الطريق ·

وعاد الملك سعود متحمسا للمهمة ووقف وراء انقلاب فى الأردن ، ثم وراء الانفصال ، كما اعترف هو بنفسه بعد ذلك لعبد الناصر ، وأعلن أنه سوف ينقل المعركة الى القاهرة نفسها ، وانتعشت الطبقات المخلوعة فى مصر واستعدت لاستقبال الملك سعود فى القاهرة ·

وفجأة قامت ثورة اليمن وباغتت الجميع ، وارتد الملك سعود مسرعا وتحول من الاستعداد للزحف الى القاهرة الى مواجهة الثورة والجمهورية على حدوده ·

ولم تكن الثورة حدثا افتعلته أو صنعته مصر ، فقد كانت اليمــن « حبلى » بالثورة منذ زمن طويل ، وقد قامت أكثــر من انتفاضة وثورة على النظام القطــرى المتخلف الذى كان قائمــا « الامامة » ولكنها فشلت وقمعت بوحشية بالغة ٠

وكان الامــام يخشى « السعودية » فى الشــمال ويخشى البريطانيين فى الجنوب ، وأراد أن يوازى ذلك باقامة علاقات مع مصر وعبد الناصر ، وفتحت هذه العلاقات طريقا الى أفواج من الشباب اليمنى للدراسة فى المدارس والجامعات والكليات العسكرية فى مصر ٠٠ وبالطبع شربوا مبادىء وأخطار الثورة ، وأيضا علم وفن « الثورة » ولم يكن هناك من يشك أنها سوف تحدث يوما ما ، وربما أقرب مما يتصور أحد ٠

وحينما قامت الثورة وأعلنت الجمهورية فى اليمن ، اعتبرت السعودية أن ذلك عملا عدائيا ضدها ، وبدأت تعد كل شىء للقضاء عليها فى « المهد » ٠

واستنجدت الثورة اليمنية « بمصر » ولم يكن ممكنــا أن لا تستجيب القاهرة بحكم مبادئها وبحكم مصلحتها ان صح الأمر ٠

وقد أرسلت مصر بعض القوات الخاصة استطاعت بسهولة أن تقضى على فلول قوات الامام وأن تساند قوى الثورة فى توطيد دعائم النظام الجديد وتأمين « الجمهورية » ، وكان يمكن أن تنتهى الأمور عند هذا الحد وأن تصبح الجمهورية حقيقة واقعة يتعايش معها الآخرون ٠٠ وهى لم تكن خطــرا على أحــد لاستغراقها فى مشاكل اليمن المزمنة ٠

وتفتقت العقول المدبرة عن فكرة تحويل اليمــن الى ورطــة ومصيدة لا يخرج عبد الناصر منها ٠٠ الى « فيتنام » تستنزفه وفى النهاية تقضى عليه ٠

وقد كان الخلاف جوهريا ولا وجه للمقارنة لأن عبد الناصر كان يساند قوى الثورة فى اليمن ٠٠ كان يقف مع « فيتنام الشمالية » وليس مع القوى الموالية والعميلة ، ولأن عبد الناصر لم يكن « جونسون » ولكن زعيم كل العرب وقائد الثورة « العربية » ٠

وتولى مغامر أمريكى من رجال « البنتاجون » قيادة حرب اليمن مع طاقم من الخبراء والمخططين الأمريكيين والأوربيين وجمعوا جيشا من المرتزقة وافتتحوا مكاتب تطوع فى عدد من العواصم الأوربية لكى لا ينقطع الامداد ، وتدفقت كل الأسلحة وأحدثها على « الملكيين » فى اليمن ٠٠ ومع هذا لم تسقط الجمهورية ولم يفن الجيش المصرى ، ولم يرغم على الفرار ، وعلى العكس امتدت الثورة من الشمال الى اليمن الجنوبى لتكتسح موكب السلاطين والمشايخ الذين يزينون الشاطىء وليسقط فى النهاية آخر معقل للامبراطورية ويغرب آخر شعاع شمس ٠

وقد أثارت حرب اليمن من الحقد والضغينة ما لم يثره أى عمل آخر قام به عبد الناصر ، وذلك لأنها حملت ألسنة الثورة الى « قدس الأقداس » والى حافة محيط البترول ، وكانت كل الضمانات الممكنة قد وضعت لحمايتها ٠٠ وليس بعد هذا « خطيئة » ٠

وشنت أعنف حملة ضارية فى الداخل والخارج واتهمت حرب اليمن بأنها استنزفت قوى مصر ومواردها ، وعرقلت كل مشاريع وخطط التنمية فيها ، واتهمت أيضا انها استهلكت قوة مصر العسكرية وكل ما أعدته منذ صفقة السلاح السوفيتى ، وأنها كانت لذلك سببا فى هزيمة عام ١٩٦٧ ، وكان أشد الناس ترديدا لهذه الاتهامات هم اقل الفئات والطبقات حرصا على قوة مصر او رخائها ٠

ولا شك ان حرب اليمن قد كلفت مصر غاليا ، ولكن ليس هناك ثورات كبيرة تتحقق بلا ثمن او بثمن رخيص ، وقد كلفت

اليمن مصر غاليا ولكن لم يكن ثمنا باهظا ، وقد كانت المبادىء والمصالح مشتركة ، وقد أمنت الحرب الثورة فى مصر بقدر ما أمنت الجمهورية فى اليمن ، وأثبتت الحرب فى اليمن قدرة وقوة القوات المسلحة المصرية ، وكانت أول مناورة عسكرية كبرى لها بالذخيرة الحية وكانت امتحانا للكوادر والاستراتيجية والأسلحة الجديدة بعد الثورة ، وقد حاربت القوات المسلحة المصرية حربا نظامية وغير نظامية وفى أرض بعيدة مجهولة ، وهى أصعب أرض ، واستطاعت أن تحقق الهدف الى ذهبت من اجله ، وأن تهزم الحلف غير المتكافىء الذى تكون ضدها ، وسجلت بطولات وكفاءات عسكرية فذة وفريدة ٠

وليس صحيحا أن حرب اليمن كانت سببا من قريب أو بعيد فى هزيمة سنة ١٩٦٧ ، أولا : لان الهزيمة سنة ١٩٦٧ لم تكن هزيمة عسكرية لأن القوات المسلحة المصرية لم تحارب ، وهى قد انهارت لانهيار قيادتها وليس لضعفها أو عجزها ، ثم لان القوات الأساسية والضاربة لم تذهب الى اليمن ولم تشترك القوات المدرعة أو القوات الجوية الا بقدر ضئيل تماما فى حرب اليمن ، واستبقت فى مصر للمواجهة مع اسرائيل ، ولأن الحرب فى اليمن لم تكن فى حاجة لمثل هذه القوات ٠

وقد اتهمت حرب اليمن بأنها استنزفت اقتصاد مصر وتسببت فى تعثر خطط التنمية ، ولكن على العكس تماما استطاعت مصر وهى تحارب فى اليمن أن تحقق أهم خطة تنمية شاملة فى تاريخها الحديث كله ، بل وأهم خطة تنمية فى كل العالم الثالث ، كما وصفتها الأمم المتحدة ، وقامت ببناء السد العالى ، وهو أكبر مشروع من نوعه فى البلاد النامية وأحد المشاريع الكبرى فى العالم ، وقامت مصر بمساعدة الجزائر على التعمير والبناء وعلى اختيار خطوات استقلالها الأولى ، الذى تحقق فى تلك الفترة ،

وساعدتها عسكريا حينما هاجمها المغرب وأغـار على حدودها ، وقامت مصر بالتزاماتها كاملة نحو الثورة الافريقية التى تمثلت فى مأساة الكونغو ٠

وقد تنازل الاتحاد السوفيتي عن ثمن الأسلحة التى استعملت فى حرب اليمن تحية منه للثورة اليمنية ، وبذلك رفع عن مصر عبئا كبيرا وقسطا رئيسيا من نفقات الحرب ٠

وفى النهـاية انتصرت الثـورة وبقيت الجمهورية ولازالت باقية ٠٠ وحينما خرج الجيش المصرى من اليمن تصورت كل القوى المعادية أن الثورة لن تصمد بعده أياما معدودة ، ولكن فوجىء الجميع بمعجزة وصمدت الثورة وانتصرت فى معركة من معارك الحرية المجيدة فى تاريخ العرب وفى كل تاريخ هذا العصر ، وهى معركة صنعاء التى دامت سبعين يوما ، وخرجت منها الثـورة والجمهورية وقد أثبتت اصالتها وعمق جذورها ، وانهزمت القوى الخارقة التى حشدت للقضاء عليها ٠٠ وبدأت رحلة اليمن للبناء ولاستيعاب حضارة العصر ٠

وقد حملت ثورة اليمـن رياح التغيير الى شـبه الجزيرة العربية ، وسقط موكب السلاطين فى الجنوب لتقوم دولة راديكالية ، وتغير السلطان فى مسقط ليقوم نظام أقـل وحشية وهمجيـة ، واتحدت « الامارات » العربية التى كانت متناثرة على شـاطىء الخليج بلا كيان ولا ذاتية ٠٠ ثم سقط الملك سـعود نفسه ليقوم حكم « اصلاحى » بقيادة أخيه فيصل ٠

حرب عام ١٩٦٧ :

كانت الحرب سنة ١٩٦٧ كارثة لا شك فيها ، ولكنها لم تكن مغامرة اندفع اليها عبد الناصر ولكن مؤامرة دبرت ضـده وفرضت عليه ٠٠ وهذه هى القصة وتضرب بجذورها الى البداية :

فى سنة ١٩٥٣ ، وبعد قليل من قيام الثورة ، تطوع عدد من الساسة الغربيين لاختيار الوساطة بين النظام الجديد فى مصر وبين اسرائيل ، وكان من أبرزهم ريتشارد كروسمان البريطانى ، وروبرت أندرسون الأمريكى ·

وكان قد تولى رئاسة الحكومة فى اسرائيل موشى شاريت ، وهو أحد أقطاب « الحمائم » هناك ومن أنصار التفاهم مع العرب ، وكان بن جوريون نبى العنف فى اسرائيل ، قد قرر اعتزال السياسة والاعتكاف فى مستوطنة بعيدة فى الصحراء ·

وكانت الثـورة فى مصر قد أعلنت مبادئهـا الستة التى بدت وكأنها سوف تستغرق جهودها لزمن طويل داخل مصر ·

وبدأت المساعى وتعددت الرحلات « السرية » بين القـاهرة وتل أبيب ، ثم توقفت وبدا أن الجهود المبذولة لا جدوى منها ، وبالطبع ألقيت كل المسئولية على العرب وعلى النظام « العسكرى » فى مصر ··

وقد اقتضى الأمر عشرين عاما ، لكى تصدر مذكرات موسى شاريت نفسه ، وتكشف كل الحقائق ··

وقد روى « شاريت » كيف أن بن جوريون عرف بهذه المساعى المبذولة ، وأنه صمم منذ اللحظة الأولى على تخريبها مهما كان الثمن ، ونفض عزلته واستدعى أخلص تلاميذه « لافون » و « ديان » لوضع الخطط ·

ونظم « لافون » شبكة للتخريب ، أرسلت الى مصر للقيام بسلسلة من الانفجارات والقـاء القنابل على المؤسسات الأجنبية خاصة « الأمريكية » وتشويه صورة النظام الجديد وزعزعة كيانه ·

واعتقلت الشبكة واعترف أفرادها وحوكموا فى القـاهرة ، ولكن أثاروا فضيحة كبـرى فى اسرائيل هى التى عرفت باسـم « فضيحة لافون » ·

ويقول موسى شاريت أن هذا لم يثن بن جوريون وديان عن الهدف الذى صمما عليه وقد دبرا حملة من « الكذب والتمويه » الاعلامى فى الداخل والخارج للتستر على الفضيحة ٠

وقرر بن جوريون أن يتولى الأمور بنفسه مباشرة فقطع الاعتزال ، وعاد الى السلطة وزيرا للدفاع وصحبت عودته موجة من الغارات الاسرائيلية على الحدود المصرية والأردنية ، مجرد تطبيقات معروفة لسياسة فرض الصلح بالعنف على العرب ٠

ومن وزارة الدفاع ، زحف بن جوريون لكى يتولى السلطة كاملة وليضع نهاية لسياسة « الحمائم » وأى جهود للسلام مع مصر ٠٠

وتصاعدت الغارات الاسرائيلية وبلغت ذروتها فى غارة وحشية على معسكر القوات المسلحة المصرية فى غزة قتل فيه عدد كبير من الضباط والجنود ، وأعلن بن جوريون بصراحة وبلا مواربة أنه أمر بها لكى يسقط هيبة النظام الجديد فى مصر ، ويهز مكانته أمام رجاله ٠٠

وقد نددت « هيئة مراقبة الهدنة » فى ذلك الحين بالغارة ثم نددت بها الأمم المتحدة واعتبرتها « أفظع » ما حدث حتى ذلك الحين ٠٠

وأصبح على النظام الجديد فى مصر ــ لكى يسترد اعتباره ولكى يؤمن مستقبله ــ أن يحصل على السلاح الذى يمكن أن يردع به اسرائيل ٠٠

وقد اقترنت عودة بن جوريون الى السلطة وتوالى الغارات التى استمر تصاعدها باختيار « الثورة » فى مصر لباندونج ورفضها لحلف الشرق الأوسط ومشاريع المستر دالاس ٠ وبدا أنها ليست مغامرة اسرائيلية ولكن استراتيجية غربية ٠٠ وقد كان بن جوريون صديقا حميما لدالاس ومن « أبطاله » ٠

وكانت مساعى مصر الملحة لشراء أسلحة من الغرب ، من بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة الامريكية قد انتهت الى الفشل ، وكان قد تقرر أن لا تحصل مصر على السلاح الا فى اطار الحلف وبعد أن تنضم اليه ٠٠ وكانت القاعدة على كل حال ، أن يقوم توازن ، بأن تفوق اسرائيل فى تسليحها كل الدول العربية مجتمعة ٠٠

وكان هناك يقين ثابت أنه طالما لن تحصل مصر على سلاح من الغرب فلن تحصل على سلاح من أى مصدر ، وستجد نفسها فى النهاية مرغمة على الرجوع والخضوع ٠٠ ان هناك مصدرين للسلاح الحديث وهما الغرب أو الاتحاد السوفيتى ، وقد يكره النظام الجديد فى مصر الاستعمار والامبريالية ولكنه يكره أيضا وربما كراهية أشد الاتحاد السوفيتى والشيوعية ٠

وفوجىء الجميع بصفقة السلاح « التشيكية » كما سميت ، كان لدى عبد الناصر الثقة والشجاعة والرؤية السياسية الصحيحة لكى يعقد الصفقة ويحطم الحصار الاستراتيجى على العرب ، ويحطم كل الموازين فى المنطقة ٠

ومنذ أعلنت صفقة الأسلحة وقبل أن تثور أزمة السويس ويتفاقم الموقف فى المنطقة قرر بن جوريون وديان أنه لابد من حرب « وقائية » ضد مصر وذلك قبل أن تستوعب السلاح الجديد الذى سوف تحصل عليه من روسيا ، ووضع الاثنان القاعدة الذهبية التى طبقتها اسرائيل من ذلك الحين « ان أمر اسرائيل يتحقق بالقضاء على قوة مصر ، والقضاء على قوة مصر يبدأ بالقضاء على قوتها العسكرية ، والقضاء على قوة مصر العسكرية يبدأ بالقضاء على سلاح الطيران المصرى » ٠

وبدأ الاستعداد للحرب ضد مصر قبل اجتماع « سيفر » الشهير بين بن جوريون وموليه وسلوين لويد الذى تقررت فيه حرب سنة ١٩٥٦ ٠

وبعد تأميم القناة ، اتفقت المصالح بين « أنتونى ايدن » الذى كان يريد اسقاط هتلر الجديد وأن لا يسمح بميونيخ أخرى فى التاريخ وبين « جى موليه » وزير خارجية فرنسا « الاشتراكى » والذى كان يريد أن يوقف زحف الاسلام لاكتساح شمال افريقيا ثم اسبانيا ثم الوصول الى فرنسا لاعادة « الامبراطورية الاسلامية » وبين « بن جوريون » الذى أعلن منذ قيام اسرائيل أن المنطقة لا يمكن أن تسع دولتين وانه اما اسرائيل واما مصر ٠

وقامت اسرائيل بدورها التاريخى الذى وجدت له وذلك رأس الحربة فى الهجوم على العرب ٠

وبعد انسحاب الجيش المصرى من سيناء وتفاديه للشرك الذى نصب له هناك ، سيطرت القوات الاسرائيلية على شبه جزيرة سيناء وعلى مدخل خليج العقبة ، وصلى بن جوريون لأنه استكمل تحرير اسرائيل ، بأرض سيناء « اليهودية » ٠

ونظرا لأن ايزنهاور كان يريد أن « يملأ الفراغ » بعد نكسة البريطانيين والفرنسيين وأن يكسب بهذا رضا العرب أمر بن جوريون « تليفونيا » بالانسحاب ، وابتلع « نبى » العصر بعنجهيته وعجرفته وانصاع للامر ٠٠ ولكن بمرارة بالغة ٠

وأعلن بن جوريون أن حرب سنة ١٩٥٦ قد أجهضت وان اسرائيل لم تحقق شيئا سوى فتح خليج العقبة ٠٠ وهذا أدنى مطالبها ، وأنه لابد من حرب أخرى « محتومة » لا يجهضها أحد ٠

وبدأ الاستعداد على الفور منذ ذلك الحين ، وقد صرح قائد الطيران الاسرائيلى سنة ١٩٦٧ « مردخاى هود » بأنهم ظلوا اثنى عشر عاما طويلة يعيشون الخطة ويأكلون وينامون الخطة ، ويقومون ويقعدون الخطة ، ويتدربون ويحلمون بالخطة ٠٠ ومن أجل ٨٠ دقيقة ٠٠ هى التى دمروا بها سلاح الطيران المصرى ٠٠ فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ٠

ومنذ سنة ١٩٥٧ ورفض عبد الناصر لنظرية ايزنهاور وحتى سنة ١٩٦٧ ، وعلى مدى عشر سنوات طويلة حافلة ، كانت المواجهة بين الولايات المتحدة وبين عبد الناصر بطول العالم العربى وعرضه وانتهت بأحداث وانتصارات مدوية ·· استقلت الجزائر وتولى السلطة بن بيللا ·· الذى كانوا يعتبرونه « عبد الناصر » آخر ، وثارت اليمن وقامت جمهورية « ناصرية » تستند الى الوجود العسكرى المصرى فى شبه الجزيرة ، وسقطت نظم الانفصال المعادية لعبد الناصر فى سوريا والعراق ·· وقامت نظم ترفع شعار الوحدة وذهبت الى عبد الناصر ·· قامت منظمة التحرير الفلسطينية لتؤكد الشخصية والكيان الفلسطينى ولتتحدى سياسة تذويب الفلسطينيين فى العالم العربى ··

وتقررت « تصفية » عبد الناصر ، وأن الوقت قد حان وتأخر للقيام بمحاولة حاسمة للاطاحة به ·

ولم يستطع الانقلاب الذى دبرته المخابرات المركزية الأمريكية عن طريق الحلف الاسلامى ، عن طريق الاخوان المسلمين سنة ١٩٦٥ ، أن يسقط عبد الناصر كما أسقطت موجة الانقلابات نكروما وسوكارنو ·· ولهذا تقررت الحرب ·

وقد وصفت حرب سنة ١٩٦٧ ، تماما كما وصفت حرب سنة ١٩٥٦ ، بأنها حرب دفاعية ومجرد رد على عدوان واستفزاز عبد الناصر ·· وقد احتاج الأمر لعدة سنوات لكى يقف جنرال اسرائيلى وأحد أقطاب تلك الحرب هو الجنرال « متبتاهوبيليد » لكى يعلن فى مؤتمر عام فى تل أبيب أن حرب سنة ١٩٦٧ كانت حربا معدة مقررة قبل أزمة خليج العقبة ، وان الأزمة قد افتعلت لكى تبرر الحرب ، وقال أيضا ان الحرب قد شنت لتعديل ميزان القوى فى الشرق الأوسط ، لأنه فى رأى الولايات المتحدة الأمريكية ، قد مال ميلا خطرا الى صالح الاتحاد السوفيتى ، وقال أيضا ان

اسرائيل كانت تعلم تماما حجم القوات المصرية وفاعليتها وأنها كانت واثقة تماما من نتيجة الحرب ·· واختتم مؤتمره بالزهو التقليدى وقال ان وصف الحرب بأنها دفاعية هو اهانة لجيش الدفاع الاسرائيلى واتهام له أنه كان يخشى القوات المصرية « وهو أمر غير صحيح » ·

وقد أثارت تصريحات الجنرال « بيليد » ضجة فى اسرائيل ، ولكن أيده أكبر المعلقين العسكريين هناك « حاييم هرتزوج » بل وأيده « أبا ايبان » واشتدت المناقشة وانحاز عدد كبير من العسكريين الى « بيليد » وبدأت « الأسطورة » وما نسج حولها من أكاذيب تسقط حول « حرب الأيام الستة » وتدخلت « جولدا مائير » رئيسة الوزراء لتطلب من الجميع باسم الوطنية وسمعة اسرائيل أن يوقفوا المناقشة المحتدمة ·

وقد استنكرت الولايات المتحدة حرب سنة ١٩٥٦ وأعلنت أنها فوجئت بها ، وأنها دبرت من وراء ظهرها ، وأعلن « دالاس » أنه مضطر « بقلب ثقيل » أن يقف ضد حلفائه ·· ثم ظهرت كتب ووثائق أن دالاس وشقيقه آلان دالاس ، مدير المخابرات المركزية الأمريكية ، وايزنهاور ، كانوا جميعا يعرفون كل شىء عن الحرب ومن الألف الى الياء وأن موقفهم كان نفاقا خالصا ·

واستنكرت الولايات المتحدة استنكارا أشد أن يكون لها دخل من قريب أو بعيد بحرب سنة ١٩٦٧ ، وطالبت بالاعتذار حينما أعلن عبد الناصر ذلك ، وأصرت على ذلك ، واقتضى الأمرة عدة سنوات ليخرج مدير المخابرات المركزية فى المنطقة بكتاب يعلن فيه أن جونسون ، رئيس الجمهورية الأمريكية ، والبنتاجون والمخابرات المركزية كانوا « ابطال » تلك الحرب الحقيقيين · وقد كانت حرب سنة ١٩٦٧ كارثة على مصر ·· اكبر كارثة وقعت عليها ، وقد أعلن عبد الناصر مسئوليته عنها ·· وطلب أن يتنحى ، ولكن لم تكن هذه كل عناصر المأساة ·· ولا عواقبها ··

ان حرب سنة ١٩٦٧ لم تكن حربا ، ولم تحارب مصر ، ولم تهزم ، ولكن سقطت القوات المسلحة بسقوط القيادة العسكرية ، وربما تكتشف كل الحقائق ذات يوم ، ويعرف مثلا دور « الحزب الامريكى » فى مصر ، وكان عبد الناصر يسميه أقوى حزب سياسى فى البلاد ، وسوف يعرف دور « البورجوازية العسكرية » التى هيمنت على السلطة فى الجيش وفى الحكومة ، والتى كانت لا تقل عداء لعبد الناصر عن الولايات المتحدة أو اسرائيل ، وقد حدث فى حرب سنة ١٩٦٧ ما يندر ، وربما لا يمكن أن يحدث فى أى حرب أخرى ، وقد عرف عبد الناصر بطريقة ما الخطة الاسرائيلية بتفاصيلها وموعدها ، وجمع كل القادة العسكريين الكبار وأحاطهم علما بما لديه من معلومات ، ولـكنهم احتفظوا بها لأنفسهم ولم يبلغوا القادة الميدانيين ‥ وكانت الكارثة ٠

وقد ثبت بعدئذ أن اسرائيل ، كانت تعرف كل صغيرة وكبيرة عن الخطط والمواقع والقوات المصرية ، وهو ما لا يمكن أن يتم عن طريق الأقمار الصناعية الأمريكية وحدها ٠

ورغم هول الكارثة الا أنها لم تحقق « لأبطالها » المنتصرين أهم ما توقعوا منها ، واذا كانت الكوارث التى لا تكسرنا تصنعنا ، حسب المثل الانجليزى المعروف ‥ فقد كانت كارثة سنة ١٩٦٧ نموذجا ‥

وقد وصفت صحيفة بريطانية الحرب بأنها « أغلى ثمن دفع ثمنا لرأس رجل واحد » ، ولكن لم تسقط هذه الرأس ، بل على العكس ‥ حدث ما لم يحدث فى التاريخ لأى قائد هزم هزيمة كبرى ‥ وخرج الشعب بأكمله لكى يتشبث به ويصمم على استبقائه ‥ وخرجت الجماهير العربية فى كل العواصم والمدن العربية تطالب بنفس المطلب ‥ وعاد عبد الناصر فى أكبر مظاهرة تاريخية وأعظمها لارادة الملايين ‥

والانتصار فى الحرب يعنى فى أبسط تعريفاته القضاء على ارادة القتال لدى الخصم ، وقد حقق ديان الهـــدف النهـــائى لاستراتيجيته وقضى على سلاح الطيران المصرى ، ولكنه فشـــل فى القضاء على قوة مصر العسكرية او فى القضاء على قوة مصر عامة ·· وقد قال قائد ســوفيتى كبير « زخاروف » ان الجيش المصرى جيش طيب ولكنه كان بلا عقل ·· لم تنقصه الارادة أو الشجاعة ولكنه افتقد التفكير والتخطيط · وقد كانت ارادة القتال هى أهــم ما حرص عبد الناصر على انقــاذه لانهــا كانت أثمن ما ينقذ ، وهى التى تعنى كل شىء للمستقبل ، وبعد أسابيع فقط من الهزيمة قامت القوات المسلحة العسكرية بأول امتحان ارادة فى معركة « رأس العش » وأثبتت نفسها ·

وأدت حرب سنة ١٩٦٧ الى نتيجة هامة كانت نقطة تحول « ونعمة » تمناها الجميع ، وهى سقوط « البورجوازية العسكرية » المصرية ، وكان سقوطها مخزيا خلال الحرب وبعد الحرب وخلال محاكمات أقطابها ، وكانت هذه هى الطبقة التى شوهت وجــه الثورة ، والتى هيمنت على الجيش وعلى الادارة والتى وقفت عقبة أمـــام قيام أى تنظيـــم سياسى ·· وكانت نهايتهـــا تحريرا لعبد الناصر من قوة مضادة كانت أقوى وأخطر بكثير مما تصور أحــد ··

لم ينكمش عبد الناصر أو ينحسر داخليا أو عربيا أو دوليا ، وهو فى الداخل عدل ، ولكنه لم يعدل قط عن استمرار التطــور الاشتراكى ، وصدر قانون اصلاح زراعى جديد ، وصدر قانون تأميم تجارة الجملة ، ومشروع قانون لتأميم المقاولات ·· وبدأت المرحلة الثانية من السد العالى ، وبدأت كهربة الريف من محطات السد العالى ، وبدأت اقامة خمس قواعد رئيسية للصناعة الثقيلة أشهرها صناعة الألمنيوم ·

وعربيا لم يتراجع عبد الناصر ولم يتنازل للقوى التقليدية أو المحافظة ، وهو تعايش مع كل القوى ·· وكانت الضرورات تقضى بتأجيل الخلافات والصراعات الثانوية والجانبية ولكنه لم ينحن أو ينزو أو يهادن ·

وقد فاض المد الثورى العربى بعد حرب سنة ١٩٦٧ وأثبتت الأمة العربية حيويتها وخصوبتها التى لا تنضب والتى لا يمكن أن يتنبأ بها الأعداء ·

وقد تفجرت الثورة الفلسطينية وتحول اللاجئون الى مقاتلين وتسلموا مسئولية قضيتهم مباشرة ضد العدو ، وتعمدت الثورة الفلسطينية فى معركة صدت الانهيار وردت الاعتبار ، وهى معركة « الكرامة » ودخلت قوة جديدة حاسمة الى ساحة الصراع ·

وقامت الثورة فى السودان ، وكان منذ الاستقلال الذى باركته مصر ميدانا لصراع استعمارى حاد يريد أن يقيم منه قاعدة لصد وحصار عبد الناصر ، وسد الطريق الى افريقيا « واحتواء » الصلات بين الثورة العربية والافريقية ، وانضم النظام السودانى الجديد الى المعركة وانحاز تماما الى عبد الناصر ·

ووقع الحدث الكبير ، وقامت ثورة لم تخطر ببال أحد فى ليبيا ، وسقطت المنطقة الحرام ، وحائط الفصل والعزل السميك بين عبد الناصر وشمال افريقيا ، والذى هيىء بكل الضمانات ليقوم بمهمته ·

أعاد عبد الناصر بناء القوات المسلحة ، واتخذ القرار الذى كسب الحرب ، وهو تجنيد المثقفين وخريجى الجامعات ، وذلك ليقوم جيش مقاتل مثقف يدرك القضية التى يحارب من أجلها ، ويستطيع ممارسة الحرب الحديثة بأسلحتها وأساليبها ·· وقد تدرب هذا الجيش وتعلم خلال حرب الاستنزاف التى بدأت منذ

سنة ١٩٦٨ وانتهت بأسبوع « الطيران الحزين » ، كما سمته جولدا مائير ، وتهاوت أسطورة التفوق الاسرائيلى المطلق والسيادة الكاملة على سماء الشرق الاوسط ، وكان هذا الجيش هو الذى كسب حرب سنة ١٩٧٣ وهو « مفاجأة تلك الحرب » كما قال الجنرال الاسرائيلى أليعازر ٠

وحينما قبل عبد الناصر هدنة روجرز قبلها من مركز قوة وليس من مركز ضعف أو يأس ، وهو قد فعل ذلك لكى يستطيع أن يبنى حائط الصواريخ الذى اعتمدت عليه الحرب ولكى يعطى القوات المسلحة المصرية هدنة قصيرة قبل بدء المعركة الكبيرة ، والتى كان مقررا أن تبدأ بمجرد نهاية الهدنة ٠

وربما يكون عبد الناصر قد مات ولا زالت سيناء محتلة ، وبترولها ومعادنها مفقودة ، ولكن ـ وهذه صفحة بطولة مجهولة ـ استطاع الجيولوجيون المصريون أن يعوضوا معظم المناجم والآبار التى فقدت ٠٠ وكانت القوات المسلحة المصرية مستعدة تماما ٠٠ ارادة وكفاءة ٠٠

قضية الاشتراكية :

ربما لم تحقق التجربة الاشتراكية المصرية « الفردوس الأرض » فى مصر ولكنها لم تكن فاشلة فشلا مطلقا ، ولم تكن أيضا تجربة متعثرة خائبة بل على العكس كانت أول تجربة تنمية ناجحة وباقية ، وهى لم تكن اشتراكية عربية ، ولكن أول تطبيق « علمى » للاشتراكية ٠

وتاريخ مصر الاقتصادى الاجتماعى الحديث هو قصة التجارب المحبطة والمجهضة للتنمية ، وقد أراد محمد على اقامة دولة عصرية « رأسمالية » ولكن قال القنصل البريطانى : ان هذا سوف يغلق أسواق الشرق أمام البضائع البريطانية ، وفرضت

بريطانيا معاهدة « الباب المفتوح » على الدولة العثمانية لخنق صناعة مصر ، وسقطت التجربة ، وأراد حفيده اسماعيل بناء دولة عصرية أوربية ، وبالتحالف مع أوربا وبرؤوس أموال أوربية ، وأعلن مصر دولة أوربية ، ولكن تدفق المغامرون والمرابون وغرقت مصر فى الديون وراحت ضحيتها ٠

واتخذت ديون مصر ، وسميت فى ذلك الحين « أكبر صفقة نصب فى القرن التاسع عشر » ، ذريعة للتدخل ثم للاحتلال ، وطوال سنوات الاحتلال (٧٤) عاما تحولت مصر الى مزرعة قطن ملحقة بمصانع لانكشير ، ويملكها حفنة من الباشوات الذين يزرعون القطن ومن التجار الأجانب الذين يصدرون القطن ، وكان محرما على المصريين انشاء المصانع أو تكوين البنوك لأن مصر دولة زراعية ولأن المصريين فلاحون فقط ٠

واحتاجت مصر الى ثورة وطنية (١٩١٩) لكى تنشىء أول بنك مصرى ، وأقام سلسلة من الشركات والمصانع للصناعات الخفيفة ، ولكنه ظل نقطة فى محيط ، ومحاصرا ومهددا دائما من سطوة الرأسمال الأجنبى ٠

ولهذا تفاقمت المشكلة الاجتماعية وازدادت حدة فى مصر ووصلت الى حد الانفجار بعد الحرب العالمية الثانية ٠٠ وانتفض الفلاحون ـ لأول مرة ـ انتفاضات مسلحة فى مزارع أمراء وباشوات كبار وطالبوا بالأرض ، وقام العمال باضرابات عنيفة تطالب بحقوق اقتصادية ونقابية ، ولم يستطع اخمادها سوى الجيش ، ولأول مرة خرجت المظاهرات الحاشدة تطالب بالغذاء والكساء والجلاء معا ٠

وحينما قامت الثورة كان طبيعيا أن يكون أول تشريع أساسى تصدره هو الاصلاح الزراعى ، وكان القضاء على الاقطاع والقضاء على سيطرة الرأسمال والاحتكار على الحكم واقامة

عدالة اجتماعية ، ثلاثة بنــود فى أول برنامج تصــدره من ستة مبادىء .

ولكن لم تبدأ الثورة اشتراكية على العكس بدأت رأسمالية اصلاحية .

تصــورت الثورة أنها وفرت كل المقومــات ورفعت العوائق ليقوم الرأسماليون الوطنيون بدورهم فى بناء اقتصاد قومى .

وزيادة فى الحوافز خففت الثورة من قيود قانون الاستثمار الأجنبى « الملكى » وشجعت الاســـتثمار الأجنبى أو مشــاركة الرأسماليين المصريين والأجانب .

واندفع الرأسماليون الى الاستثمار ولكن فى الميادين السهلة السريعة الربح والقليلة المخاطرة ، وهى الاسـكان الفــاخر أو الصناعة الاستهلاكية .. ولم يكن هذا ما تفتقر اليه مصر وما تتطلع اليه الثورة .

وتدخلت الدولة لتوجيه الاستثمار ، فأنشأت وزارة الصناعة لهذا الهدف ، وقامت ببعض المشروعات الصناعية الأساسية لتكون مثلا وقدوة للرأسماليين .

ولكن اعتبرت الرأسمالية المصرية أن هذا التدخل واقامــة المشروعات افتئات على حقوقها وحرياتها وعلى « قوانين السوق » وطالبت بالعدول عن هذه السياسة .

وحينمــا قامت الثورة بتمصــير رؤوس الأموال والشركات البريطانية والفرنسية ، بعد حرب السويس ، طالب الرأسماليون بأن تنقل لهم ملـكية هذه الأموال والمؤسسات لأنهــم الأحق بها والأقدر على ادارتها .

ورأت الثورة المشاركة فى هذه الأموال وأن يقوم اقتصــاد مختلط يبنى قطاعا حكوميا ليتولى المشاريع الطويلة المدى ويتولى

القطاع الخاص المشاريع الأخرى المناسبة ، وأنشأت الدولة مؤسسة اقتصادية « حكومية » « رأسمالية دولة » ووضعت خطة تنمية توزعت مشاريعها واستثماراتها بين القطاعين • رفض الرأسماليون هذه السياسة والخطة والمؤسسة واعتبروها « انحرافا » خطيرا وقرروا الامتناع والاضراب عن الاستثمار •

تأكدت الثورة أن الرأسماليين المصريين لا يدركون حقائق العصر ولا يتحملون مسئوليات « الرأسمالية » الوطنية والاجتماعية فى البلدان النامية والمتقدمة ، وتولت وقررت أن تتولى النصيب الأكبر من تنفيذ الخطة •

وقررت لهذا تأميم بنكين رئيسيين لتستطيع التمويل وهما « بنك مصر » بنك الشعب ، ثم البنك « الأهلى » ومعقل الرأسمالية الأجنبية الأول •

كانت هذه نقطة اللاعودة ، وأعلن الرأسماليون الحرب ، ورد عبد الناصر •• اننا سنحقق الخطة « بقروش وملاليم الشعب » واننا سنبنيها بأظافرنا •• وكان من أشد الناس تنديدا بفشل الرأسمالية المصرية وافلاسها وعجزها وبقصور نظرها « السادات » •

واعلنت الاشتراكية •• وصدرت قوانين يوليو سنة ١٩٦١ ، وبدأ عصر جديد •• الانتقال الى الاشتراكية ، وأطلق « الحدث » التاريخى ، حماسا شعبيا انعكس على تنفيذ الخطة ، وكانت هذه نتائجه ، تحققت الخطة الخمسية الأولى بنتائج ومعدلات قياسية ، ورغم التحديات العنيفة وغير المتكافئة التى واجهتها •

واستطاعت الخطة « الاشتراكية » أن تحقق فى أربع سنوات (١٩٦١ ــ ١٩٦٥) أضعاف ما حققت مصر فى تسع سنوات من التنمية الرأسمالية ، بل ما لا يمكن مقارنته ، وأثبتت بذلك صحة المنهج « الاشتراكى » فى التنمية •

وأمكن بناء السد العالى ـ أهم المشروعات وأكبرها ـ والذى يعتمد عليه كل المستقبل ، وأصبح لدى مصر مقومات التنمية الرئيسية ـ وهى الماء ـ للزراعة والكهرباء للصناعة ·

واعتمادا على مياه السد العالى استطاعت مصر أن تستصلح مليون فدان ، وهى أكبر مساحة استصلحتها خلال تاريخها الحديث كله ، وأن تضاعف زراعة سبعمائة ألف فدان أخرى ·

وبدأ تحول الزراعة الصغيرة المتناثرة الى الزراعة التعاونية العصرية والكبيرة ، ونحو الزراعة الاشتراكية ، واعتمادا على كهرباء السد العالى أمكن اقامة قاعدة متكاملة ومتوازنة من الصناعة الثقيلة والمتوسطة والاستهلاكية ومن الصناعات الحربية ، وامتدت من اسوان الى الاسكندرية وتوزعت على كل المحافظات وأبعدها ·

وكسرت مصر الحصار الذى كان يثير أشد المرارة وتداركت ـ كما قال عبد الناصر ـ تخلفها عن الثورة الصناعية الأولى ولحقت بالثورة التكنولوجية المعاصرة ، وتحقق التصنيع تحت شعار « الانسان سيد الآلة » و « الصناعة فى خدمة الانسان » ·· لم تعد المصانع تقام لحساب الرأسماليين ، ولكن لبناء قوة مصر ورخائها ، وفى هذا الاطار كان طبيعيا أن تنمو الطبقة العاملة المصرية وتصبح طبقة حاسمة فى الاقتصاد والسياسة ، وقد كفلت لها التشريعات النقابية حقوقها فى العمل ، وكفلت لها التشريعات الدستورية ٥٠٪ على الأقل من السلطة السياسية والصناعية ، ونشأت طبقة تجمع بين الكفاءة المهنية والوعى النقابى والسياسى ، واختفت لأول مرة البطالة المباشرة بين العمال ·

وقد استطاعت الثورة ـ وكانت حريصة تماما على هذا ـ أن تكسب الطبقة الوسطى الى التجربة الاشتراكية وأن تثبت لهم عقم التطلعات الطبقية الرأسمالية ، واستجابت الأغلبية ، وكان

منهم المديرون والفنيون والخبراء والعلماء ممن استوعبتهم المشاريع الجديدة ، ووفرت لهم فرصة ممارسة مواهبهم وخبراتهم المشلولة المبددة ، ووجد هؤلاء أنفسهم فى بناء مصر الاشتراكية ٠

وتجنبت التجربة الاشتراكية المصرية التزمت أو التعنت ازاء الرأسمالية ، وتمسكت الثورة بالاقتصاد المختلط وأن يبقى القطاع الخاص وأن يجد مجالا واسعا لنشاطه اذا أراد ، وأن تتحدد الحدود بين القطاعين ، وأن يقوم التكامل فى اطار ولاية القطاع « الاشتراكى » ، وقد ازدهر قطاع كبير من الرأسمالية الوطنية المتوسطة والصغيرة ومن الحرفيين أفاد من الاستقرار والتوسع الاقتصادى وتفتح على الأسواق الجديدة التى تفتح عليها الاقتصاد فى المعسكر الاشتراكى أو فى العالم الثالث أو فى الغرب أيضا ٠

وقد اعتمدت الخطة « الاشتراكية » أساسا على التمويل الداخلى ، تعبئة الموارد والمواهب الداخلية ، وأن تكون المساعدة والمعونة والقروض عاملا مساعدا ، وذلك حتى تقف التجربة على أسس عميقة الجذور ، وكان التمويل الداخلى ٧٥٪ والخارجى ٢٥٪ ٠

وكانت مصادر التمويل والمساعدة والخبرة متنوعة من المعسكر الاشتراكى أو من الغرب أو من العالم الثالث أو من الأمم المتحدة ، واذا كان الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية قد قامت بالنصيب الأكبر ، فلم يكن هذا عن تحيز ولكن لأنها قدمت الشروط الأفضل ، ومع ذلك اشتركت معظم دول الغرب : ايطاليا والمانيا واليابان ، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية ، واشتركت الهند ، وساهمت الأمم المتحدة ٠

وقد كانت الثورة وهى تحقق الاستقلال الاقتصادى واعية أشد الوعى أن لا تقع تحت أى هيمنة أو تسقط فى أى تعبئة ، وكان حجم التعامل الاقتصادى موزعا بين كتل العالم الثلاث الاقتصادية توزيعا وثيقا بنسبة الثلث لكل منها ٠٠ وليس صحيحا بالطبع أن

انغلقت مصر عن أى سوق فى العالم الا اذا أغلق أبوابه أمامها ٠

وقد اشتركت ايطاليا ببناء صناعة السيارات وفى التنقيب عن البترول ، وأقامت المانيا الغربية القناطر والكبارى ومحطات الكهرباء ، وبنت الولايات المتحدة الامريكية الفنادق والمرافق السياحية والتليفزيون وبالتنقيب عن البترول ، واشتركت الهند فى مصانع النسيج والآلات الهندسية ٠

ولم تكن الحلول العملية للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية هى كل ما قدمته التجربة الاشتراكية فى مصر ، ولكنها قدمت حلولا جديدة وخلاقة لمشاكل فكرية ومذهبية كانت تستغرق المفكرين والسياسيين ٠

وقدمت تفسيرا وتطبيقا عربيا للاشتراكية يمتزج فيه التفكير والتنفيذ ، والتفتح على العالم بالتغلغل فى الواقع ٠٠ ولم تكن الاشتراكية غريبة أو بعيدة عن مصر ، ولكن لم يستطع الاشتراكيون سواء الماركسيين أم الاشتراكيين الديمقراطيين أن يحولوها الى قوة فكرية وسياسية جماهيرية أو الى برامج وحلول عملية ٠٠ وأهم من هذا لم يستطيعوا أن يصلوا بها الى السلطة ٠

وقد ظلت مصر مشتتة فكريا وروحيا بين الوطنية المصرية « البورجوازية » التى تغلب القضية الوطنية على القضية الاجتماعية ، وبين السلفية الدينية المتعصبة والتى لا تملك برنامجا ، وبين الماركسية اللينينية المنقولة نقلا حرفيا عن التجربة السوفيتية وبين الاشتراكية الديمقراطية المستعارة من حزب العمال البريطانى استعارة سطحية ٠

وقدمت التجربة المصرية « الناصرية » اطارا نظريا تمتزج فيه الوطنية والدين والاشتراكية وتعكس الأصالة العربية وتقدم حلا للحيرة والتشتت المذهبى ٠

وقد رفض عبد الناصر تسمية التجربة « بالاشتراكية العربية » لأن هذا يعني أن نعيد اختراع الكهرباء .. وسماها « التطبيق العربى للاشتراكية » أى التطبيق بما يلائم الواقع والتراث والخصائص المميزة وبما يضيف الى تراث الاشتراكية ولا ينقل عنها فقط .. وأعلن عبد الناصر أن اشتراكيتنا علمية « أى تقوم على العلم بقوانين المجتمع وبالأسس الصحيحة بتغييره » وهو أراد أن يحمى التجربة من اشتراكية الشعارات أو من الواجهات الاشتراكية الزائفة باسم اشتراكية وطنية التى كانت ذائعة فى العالم الثالث .

ولم يكن عبد الناصر ماركسيا لينينيا ، ولكنه لم يكن أيضا معاديا عداء مرضيا لنظرية علمية ثورية لا يستطيع أحد ـ خاصة اذا كان اشتراكيا ـ أن يتجاهلها ، وقد حدد عبد الناصر بوضوح الفروق والخلافات بين الاشتراكية العلمية بتطبيقها العربى ، وبين الماركسية اللينينية ، وكانت أوجه الاتفاق واضحة بالتبعية .

وقد كان عبد الناصر أول الناس وأشدهم نقدا للتجربة وكان يطالب به ويعده الأساس لنجاح التجربة فى أحرج مراحلها ، وهى المرحلة الانتقالية ، ووسط التحدى الداخلى والعربى والدولى الذى كانت تواجهه .

وقد طالب عبد الناصر بثورة ادارية وتغيير جذرى فى الادارة والبيروقراطية المصرية العتيقة والتى نشأت وتكونت على مر عصور كثيرة ضد الشعب ولخدمة مستغليه أساسا .

ولم تكن هذه البيروقراطية مؤهلة لتنفيذ خطط ومشاريع اشتراكية لصالح الشعب أولا وأخيرا ..

وكان عبد الناصر هو أول من صرح « بأننا نبنى اشتراكية بغير اشتراكيين » وتلقفه بعدئذ الشيوعيون ليحتجوا به ضد عبد الناصر وضد التجربة .

وقد أقيم المعهد الاشتراكى « العالى » فى القاهرة وأقيمت

المعــاهد الاقليميــة فى المحافظــات لتدريب وتخــريج القيــادات والكوارد ٠

ولم يكن ممكنا أن تظل الرأسمالية قائمة ومساندة ، حتى يتم اعداد طاقم اشتراكى ليتولى التجربة ، ولكن أراد عبد الناصر ان تتعلم الجماهير الاشتراكية خلال الممارسة وأن تنجب القيادات والكوادر من قلب البوتقة ٠

ولم يكن ممكنا لعبد الناصر أن يعلن الاشتراكية ويســلمها للشيوعيين الذين رفضوها منذ البداية وأعلنوا انها رأسمالية دولة احتكارية لصالح الاحتكارات العالمية وظلوا يغيرون رأيهــم ثم يعدلون عنه ثم يغيرونه حتى الآن ٠٠

وقد أجهضت التجربة الاشتراكية المصرية بسياسة الانفتاح وهى لم تفشل ولم تتعثر بل أعلنت عليها الحرب ، ونستطيع أن نعدد مائة عيب وعيب للتجربة الاشتراكية فى مصر ، ولكن عند تقييمها يمكن أن نذكر :

ـ انها أنقذت الثورة وحمتها فى أشد محنة تعرضت لها ، وقد كانت الجماهير التى خرجت يوم ٩ ـ ١٠ يونيو هى الفلاحين الذين وزعت عليهم او استصلحت لهم الأرض ، وهم العمال الذين بنيت لهم المصانع ، والطلبة والمثقفون الذين فتحت لهم المدارس والمعاهد والجامعات ، وكل الوطنيين الذين تجمعت أحلامهم حول بناء مصر الاشتراكية ٠

ـ أنها كسبت حرب أكتوبر ، وقد وجه القائد العام للحرب أفضل تحية وجهت حينما صرح انه بغير القطاع العام لم يكن ممكنا أن نكسب الحرب ٠

ـ ان الاقتصاد المصرى لا يزال حتى الآن يعيش عليها معتمدا على انجازاتها ، والمعركة الفاصلة الآن فى مصر ، والتى سوف تقرر كل شىء ، هى معركة القطاع العام ، وهو لم يسقط بعد ، ولا تزال القوى « الاشتراكية » الناصرية صامدة مستميتة لا يخطر ببالها الاستسلام ٠

عبد الناصر والصراع الدولى

أولا ـ عبد الناصر والولايات المتحدة الأمريكية :

بدأت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وطنية غير منحازة للشرق أو الغرب ، وموضوعية تريد اكتشاف العالم الخارجى الذى تواجهه ، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قوته « الأعظم » ٠

تصرف الأمريكيون فى القاهرة ـ بعد الثورة ـ وكأنهم أصاحب « الحدث » وتدفقت على مجلس الثورة المذكرات ، وتوافدت مواكب من الخبراء من كل الأجهزة والادارات لترسم الخطط والسياسات ، وكشفت الوثائق والأوراق فيما بعد ، أن الولايات المتحدة كانت تعد لانقلاب عسكرى فى مصر ، ويقول رجل المخابرات المركزية الأمريكية (مايلز كوبلاند) : أن المستر دين اتشيسون وزير الخارجية الأمريكية فى حكومة ترومان دعا الى مؤتمر كبير ، أكبر مؤتمر عقد لبحث سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ، وقد مثلت فيه كل الأجهزة والوزارات وكل الدوائر العلمية المختصة بالمنطقة ، وقد انتهوا بالاجماع أن نجاح أى سياسة أمريكية فى الشرق الأوسط يعتمد على مدى « وجود » الولايات المتحدة فى القاهرة لأن مصر هى مفتاح المنطقة ٠

وعهد الى كيم روزفلت ـ المسئول عن المنطقة فى المخابرات المركزية الأمريكية ـ أن يعد لانقلاب عسكرى فى مصر بزعامة « الملك فاروق » ، وكان صديقا حميما له ، كما كان صديقا حميما لشاه ايران ، وقد قام بانقلاب « الزعيم » فى سوريا ٠٠ وبدأ عصر الانقلابات العسكرية على طريقة أمريكا اللاتينية ٠٠ واكتشف « كيم » بعد قليل أن الملك فاروق لا يصلح ، ووافقه على ذلك السفير الأمريكى جيفرسون كافرى ، وكان أبرع سفراء الولايات المتحدة ، و فىسجله أكثر من ثلاثين انقلابا عسكريا فى أمريكا اللاتينية ، ولكن قمة مجده كانت فرنسا ٠٠ حيث استطاع بعد

الحرب العالمية الثانية أن يصفى اليسار ، بل وأن يصفى « ديجول » وأن يحول فرنسا الى قاعدة وعاصمة حلف الاطلنطى ، وقد نقل الى القاهرة لنفس المهمة ، وهى أن يدخل بها الى العصر الأمريكى ، والى عاصمة وقاعدة لحلف جديد يضم منطقة الشرق الأوسط ٠

وقد انهمكا معا فى البحث والتنقيب ، كما يقول كوبلاند ، حتى فاجأتها ذات يوم ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وقرأ النبأ فى الصحف ٠٠ تماما كما قرأناه نحن فى واشنطن مع كل الأجهزة والادارات الأخرى ٠

ولا شك كان الحرج شديدا بالنسبة لكيم وروزفلت وبالنسبة لجيفرسون كافرى ٠٠ ولهذا سارعوا جميعا الى انتحال ثورة يوليو ومحاولة استيعابها بعد أن فشلوا فى اكتشافها أو التنبؤ بها ٠

ورفع السفير الأمريكى الكلفة ، وأطلق على قـادة الثورة لقب « الأولاد » وعين نفسه وصيا أبويا ٠٠ وبدأ يلوح بقـدرة الولايات المتحدة على تحقيق الحكم الوطنى المصرى ، والضغط على بريطانيا « المفلسة » حتى ترحل ، وتملأ الولايات المتحدة « الفراغ » ويبدأ العصر « الذهبى » فى مصر ٠

وفى سنة ١٩٥٣ ، وبعد أشهر فقط من قيام الثورة احتاج الأمر الى دبلوماسية وزير الخارجية الأمريكى نفسه ، لكى يمكن ضم مصر الى فلك الولايات المتحدة ، وكان الجمهوريون قد تولوا الحكم بزعامة ايزنهاور ودالاس ، وأعلنا أن عصرا جديدا سوف يبدأ فى السياسة والدبلوماسية الأمريكية ٠

وقال المستر جون فوستر دالاس أنه سيذهب الى الشـرق الأوسط ليرى ماذا يفعل « الأولاد » هناك ، وبالطبع ليسدد خطاهم ٠

وكانت أول مرة يزور فيها وزير خارجية أمريكى القاهرة ، وتطلع الجميع الى النتائج ، ولكن كانت الهدية التى جاء بها الى

« الأولاد » فى أول زيارة تاريخية هى طلب الانضمام الى حلف جديد شامل ، يضم الشرق الاوسط كله ، وتكون مصر قاعدته وقيادته وتكون طليعته فى حماية المنطقة من خطر داهم وهو الشيوعية والاتحاد السوفيتى ·

وكانت فكرة الحلف قديمة ، وسبق أن تقدمت بها الدول الغربية الى حكومة الوفد سنة ١٩٥١ ، وتم ذلك فى مظاهرة دلبوماسية استفزازية وصاخبة ، وتوالى سفراء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وتركيا على وزارة الخارجية المصرية يحمل كل منهم ، نفس الطلب والانذار ، بأن تنضم مصر الى أحلاف الدفاع عن العالم الحر والا تتحمل النتائج ·

وقد رفضت حكومة الوفد الطلبات الأربعة ، واعلنت ان مصر يجب أن تستقل لكى تقرر سياستها الخارجية ، ولم تكن الثورة أقل وطنية ·

واعتذر عبد الناصر فى أدب شديد الى المستر دالاس ، وشرح له أن قضية مصر الأولى والأخيرة ، والتى قامت بسببها الثورة وكل الثورات والانتفاضات ، هى الاستقلال ، وأن العدو الذى يجمع عليه المصريون ولا يرون عدوا سواه هو الاحتلال الجاثم منذ سبعين عاما ، ولا يمكن أن يقبل المصريون ان يبقى وأن يتحول فجأة الى حليف وأن تنضم اليه قوات أجنبية اخرى ليقوم حلف عسكرى « غربى » فى مصر ·

وشرح عبد الناصر بنفس الأدب للمستر دالاس ، ان الولايات المتحدة التى تدافع عن الحرية ضد الشمولية ، يجب أن تقنع اقرب حليف لها بالاعتراف بحقوق شعب مصر وأن ترد لها حريتها لتقرر سياستها فى الداخل والخارج ، وشرح له أيضا ان افضل وسيلة لحماية مصر من الشيوعية او الخطر السوفيتى ، أن تبيع الولايات المتحدة لمصر السلاح والمصانع ، وأن تنبى مصر مجتمعا يستحق

الدفاع عنه ، والدفاع الصحيح ينبع من القوة الذاتية ويعتمد على الداخل ٠

واستمع المستر دالاس ولم يعلق ، ولم يقتنع ، ولكن خاب أمله فى « الأولاد » وخاصة زعيمهم ، وهو قد جاء ليحقق مشروع « اتشيسون » ويضيف اليه ٠٠ ولهذا لابد أن يراجع خططه ومشاريعه ويضع « استراتيجية » جديدة ٠٠ واذا كانت القاهرة لم تقبل وتستمع للنصيحة فلابد من الالتفاف حولها والضغط عليها ٠ ونقل المستر دالاس عاصمة مشاريعه من القاهرة الى بغداد ، وبدلا من مهمة واحدة هى حصار الاتحاد السوفيتى لتحريره ، أضيفت أخرى لا تقل أهمية ، وهى احتواء الخطر « القائم » فى مصر ٠٠ حتى تصفيته ٠

واستفزت سياسة دالاس واستراتيجياته العالم شرقا وغربا ، وكانت أشد الدول قلقا هى الدول الآسيوية والافريقية التى تحررت بعد الحرب ، وقد أثارها « جنون الأحلاف » الذى سيطر على دالاس ، حلف بغداد فى الشرق الأوسط ، وحلف مانيلا فى شرق آسيا ، واقامة أحزمة من الأحلاف لتحرير الشعوب الأسيرة فى أوربا ، وطوى الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى والصين كالبساط ٠

ودعت الدول الآسيوية المتحررة الى عقد مؤتمر باندونج ، واستجاب عبد الناصر للدعوة وذهب ، ولم يكن ممكنا أن تغيب مصر « الثورة » عن هذا الاجتماع ، وكان نقطة تحول فى التاريخ الحديث ، وفى موازين العصر ٠

واعتبر المستر دالاس رفض عبد الناصر لحلف بغداد وذهابه الى باندونج تحديا واستفزازا له ، وهو قد أعلن « أن الحياد سياسة غير أخلاقية وأن ليس هناك حياد بين الشر والخير » ٠٠ وكان من نتائج مؤتمر باندونج أن اعترفت مصر بالصين الشعبية ، وكانت أكثر الدول الآسيوية تعترف بها ، ومن بينها باكستان ،

أخلص حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية وقاعدة كل أحلافها ، ولكن اعتراف مصر كان « لطمة » لا تغتفر ، وقرر بعدها المستر دالاس ـ كما كشفت الوثائق والسجلات ـ أن عبد الناصر يجب أن يذهب ، ووافقه المستر ايدن ـ قبل حرب السويس ـ وبدأ تعاون بين المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية لاعداد « انقلاب » مشترك ٠

وبدأ الاستعداد بضربة مدوية ٠٠ وهى سحب تمويل مشروع السد العالى ، وفى مظاهرة دبلوماسية خرقت كل عرف بين الدول ، وصدر بيان أمريكى يشكك فى قدرة النظام فى مصر ويدعو المصريين الى التخلص منه حتى ينعموا بمساعدة أمريكا ٠

ولم تكن « الأخلاق » هى التى تحرك المستر دالاس وتدفعه الى التنديد بباندونج ، ولكن العالم الثالث فى آسيا وافريقيا هو أهم المناجم والمزارع والآبار ، وهو أهم المواقع والقواعد ، وهو الذى قامت عليه السيادة الأوربية « خمسة قرون » وهو محور كل التطلعات الاقتصادية والاستراتيجية الأمريكية ، ويجب أن ترثه كاملا ٠٠

وقد أعلن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٩٨ ، أن القرن العشرين يجب أن يكون القرن الأمريكى كما كان القرن التاسع عشر هو « القرن الأوربى » ، ولكن اقامت الامبراطوريات الأوربية سدا مانعا أمامه ، وأصبح كل ما تطلبه الولايات المتحدة هو « الباب المفتوح » ٠٠ وظل الصراع حتى « انتهت » أوربا بعد الحرب العالمية الثانية وجاء المستر دالاس لكى يحقق الحلم الذى قال به رئيس أمريكى « جمهورى » ٠٠ لأول مرة ٠

وكان انضمام « عبد الناصر » الى جبهة باندونج نقطة تحول بامتداد دعوة الحياة الى الشرق الأوسط منطقة البترول وميدان

الصراع الأول بين الكتلتين وعبورها الى افريقيا ، مخزن المناجم والموارد « والحوش الخلفى » لاوربا وحف الاطلنطى ٠

وبانضمام عبد الناصر الى « باندونج » أصبح حصار الدعوة فى آسيا ، بين نهرو وسوكارنو ، مستحيلا ، وظهرت زعامة وقيادة جديدة « خطرة » فى منطقة دقيقة حاسمة ٠

وكانت باندونج أول خروج لعبد الناصر الى العالم ٠٠ وقد فاجأ الجميع بشخصيته وآثار اكبر قدر من الاحترام والاعجاب ٠٠ والامل ٠٠ وبايعوه زعيما اسيويا افريقيا ٠

ولهذا قرر المستر دالاس « أن لابد من الأطاحة به فى المهد » وقبل أن يغدو بعد ذلك أكثر صعوبة أو مستحيلا ، وبدأت سلسلة الاحداث التى انتهت الى الحرب ، وقد تنصل دالاس تماما من حرب السويس ومن أى علم مسبق بها ، وقد عارضها علنا وضد أقرب حلفائه ، ولولا ذلك لسقط النظام فى مصر وانتهى عبد الناصر ، وذلك كما قالت الصحف الأمريكية فى ذلك الوقت وظلت تكررها حتى تصورت أنها أصبحت بديهية وقضية مسلمة ٠

وقد صدر أخيرا ترجمة لحياة المستر دالاس كتبها صحفى بريطانى وثيق الصلة به ، وبكل أسرته ، وهى الترجمة « المعتمدة » لحياته ، وكشف فيها التفاصيل والوقائع ، وأن المستر فوستر دالاس وزير الخارجية وشقيقه المستر آلان دالاس مدير المخابرات المركزية ورئيس الجمهورية المستر ايزنهاور ، كانوا يعلمون جميعا بالحرب من البداية الى النهاية ، وأن موقفهم منها كان ، كما سماه ، « نفاقا خالصا وصارخا » ٠

وصدر عن حرب السويس كتاب ، أصبح أحد المراجع الأساسية ، لأحد أساتذة العلوم السياسية ، والاخصائيين فى الشرق الأوسط « كيثيث لوف (١) » ليؤكد نفس الحقائق ، وهو

---

(١) كيثيث لوف « حرب السويس المزدوجة » ٠

يروى مثلا ، أن جى موليه وسلوين لويد ، ذهبا لزيارة المستر دالاس فى « المستشفى » بعد نهاية الحرب بمدة قصيرة ، وفوجئا به يقول « لماذا بحق السماء أوقفتم الحرب ٠٠ وكيف لم تقضيا على ذلك الطاغية الصغير ٠٠ لقد فعلها ايزنهاور » وأذهلتهما القدرة على التبجح وقلب الحقائق ٠

ولم يتردد مع هذا « منقذ » مصر عن اعلان تجميد أموال مصر فى البنوك الأمريكية ، ومنع بيع القمح الأمريكى لها ، ولم يكن لديها ما يكفى لأكثر من اسبوعين ، بل ومنع بيع الأدوية الضرورية « لانقاذ » جرحى الحرب ٠

ولكن مفاجأته السياسية الكبرى كانت الخروج بنظرية سميت باسم ايزنهاور حتى لا يتخلف عن ترومان ، وقالت بأن على الولايات المتحدة أن تملأ « الفراغ » الذى خلفه نهاية بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأوسط ٠٠ وحتى لا تملأه الشيوعية الدولية ، وعرفت باسم « ملء الفراغ » ، وكانت تعنى اعلان المنطقة « فارغة » ولابد أن يملأها أحد من الخارج ، وبالطبع ليس هناك اهانة أكبر يمكن أن توجه الى أى أمة مثل تلك الاهانة ٠

وحينما عاد الديمقراطيون الى السلطة وتولى كنيدى الحكم سنة ١٩٦٠ كانت الأجهزة الامريكية قد تأكدت أن اسقاط النظام فى مصر مهمة مستعصية ، وأعلن كنيدى – بعد فشل الغزو فى خليج الخنازير – ضد كوبا سياسة « ليبرالية » جديدة نحو العالم الثالث ، وقال انه ميدان المعركة الرئيسية بين القوتين ، ولابد أن تكسبها الولايات المتحدة سياسيا واقتصاديا لا عسكريا ٠

وتبادل كنيدى وعبد الناصر الرسائل ، وأوفد مبعوثا خاصا الى مصر ، رحبت به الحكومة وقدمت له كل المعونات ، وعاد معلنا تفهمه لسياسات مصر ، وانها الأفضل والأصلح بالنسبة لمشاكلها ، وذاب بعض « الجليد » فى العلاقات المصرية الأمريكية ، ولكن

اغتيل كنيدى وتولى جونسون ، وتحول مباشرة الى سياسة « العصا الغليظة » نحو العالم الثالث كله ، وقد افتعل حادث خليج تونكين ليشن الحرب ضد فيتنــام ، وقامت المخابرات المركزية الامريكية بسلسلة الانقلابات المتلاحقة فى آســيا وأفريقيا لتصفية زعمــاء « باندونج » ٠

وفى الشرق الأوسط كان جونسون متعصبا متحيزا لاسرائيل وقد تتالت تصريحاته المثيرة ، ثم تدفقت المســاعدات العســكرية والاقتصادية ، وذهب « موشى ديان » وعدد من جنرالات اسرائيل الى « فيتنام » لينقلوا دروس الشرق الأقصى الى الشرق الأوسط ٠

وبوحى من الأجهزة الأمريكية قام الحلف الاســلامى سنة ١٩٦٥ بين ايران والملكة العربية السعودية لتصفية القومية العربية واستبدالها بالجامعة الاسلامية ، ولتصفية زعيم « القومية العربية » واستبداله بأئمة الحلف الاسلامى ٠

وكانت أولى ثمار الحلف مؤامرة الاخوان المسلمين فى مصر فى نفس العام ، سنة ١٩٦٥ ، وقد اكتشفتها التنظيمات السياسية الشعبية ـ قبل الأجهزة البوليسية ـ وصدمت الرأى العام ببشاعة نواياها ، واعترف المتآمرون بمصادر التمويل والتحريض ٠

وأوقفت الولايات المتحدة فجأة بيع القمح الى مصر بالعملة المصرية لعرقلة خطة التنمية الثانية فى مصر ، وكانت مصر قد انتهت بنجاح كبير من تحقيق أول خطة خمسية ، وأعدت خطــة سباعية محورها التصنيع الثقيل ٠

وأرسل جونسون فى النهاية مذكرة الى الحكومة المصرية يطالب فيها بحق الولايات المتحدة فى التفتيش على قوات مصر المسلحة وفى الرقابة على ميزانيتها ، ولم يسبق فى تاريخ مصر أن تلقت مثل هذه المذكرة الا سنة ١٨٨١ ، وقبل أشهر من احتلال بريطانيا ٠

وفى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، شنت اسرائيل حرب الأيام الستة بالهجوم على مصر ، وفى نفس اليوم كان محددا أن يسافر نائب رئيس الجمهورية ليقابل جونسون لتسوية الأزمة فى الشرق الأوسط ٠

وتبرأت الولايات المتحدة الأمريكية من أى تبعة أو مسئولية عن حرب سنة ١٩٦٧ ، وحينما اتهمت بالتواطؤ ، ثارت وأقامت الدنيا وأقعدتها ، وطالبت بالاعتذار وأصرت عليه ٠

ولكن حينما وصلت أنباء تنحى عبد الناصر قال جونسون على الفور : « هذا أسعد خبر سمعناه من زمن طويل » ، وقال دين راسك ، وزير الخارجية : « لقد انتهى هتلر الصغير » ٠

وبعد سنوات كشف مدير المخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط فى كتابه « رمال وحبال » أن البنتاجون والمخابرات المركزية والبيت الأبيض كانوا أطرافا ضالعين حتى رقابهم فى حرب سنة ١٩٦٧ ٠

وانسحب جونسون واعتزل السياسة مهزوما ٠٠ « لم يحرر فيتنام ولم يحرر مصر » وبدأ عصر نيكسون ، روجرز ، كيسنجر ٠

ولم تختلف السياسة ، بل أصبحت أشد تعنتا وتصلبا ، ووقفت الولايات المتحدة ضد أى محاولة لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة ، ولتسوية القضية فى اطار المنظمة الدولية أو خارجها ، وأصر كيسنجر على أن لابد أن يجلس جمال عبد الناصر على مائدة واحدة أمام جولدا مائير فى مفاوضات مباشرة حتى تملى شروط السلام ٠

وقد طالب كيسنجر فى النص الذى أورده المستر ستيفنز أن يتخلى عبد الناصر عن زعامته للقومية العربية « الراديكالية » حتى تقبل الولايات المتحدة أن تضغط على اسرائيل ، لكى تحل

قضية الشرق الأوسط ، وليس هناك غرور أو تشويه للحقائق أو افتراء على الشعوب والتاريخ مثل هذا النص ··

ولا يقارن بهذا الطلب الا طلب بالمرستون سنة ١٨٤٠ الى محمد على أن يلزم حدود مصر وأن يتخلى تماما عن أى مشروع لاقامة الدولة العربية ·· حتى تسمح له أوربا بالبقاء ·· ولعله يصبح صعبا تماما بعد ذلك أن يتهم عبد الناصر بأنه استفز الولايات المتحدة الأمريكية وتجاوز حدوده وقدراته فى هذا الاستفزاز ·

لقد كانت الولايات المتحدة منذ مؤتمر « اتشيسون » تريد « الوجود الأمريكى » وأن يسود فى القاهرة ولا تقبل أقل من هذا ، وكانت سياسة عبد الناصر وكل مواقفه « دفاعية » ضد سياسة أبسط ما توصف به أنها « استعمارية » ·

وقد تحدت مصر الامبراطورية « العثمانية » وذهبت قواتها حتى اسطنبول تحقيقا لاستقلال مصر ، وتحدت الامبراطورية البريطانية فى ذروة قوتها فى أواخر القرن التاسع عشر ـ وبعد انتصارها فى الحرب العالمية الأولى ـ وبعد الحرب العالمية الثانية وحتى سقطت نهائيا فى حرب « السويس » ·

ولم يكن ممكنا أن تنحنى وترضخ « للامبراطورية الأمريكية » ضد كل تراث مصر ·

ثانيا ـ عبد الناصر والاتحاد السوفيتى :

لابد من جلاء بعض الحقائق غير الواضحة أو غير المعروفة حول العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى ··

وهناك رأى شائع ، خاصة فى الغرب ، أن الثورة بدأت غربية منحازة للغرب ، وضد الشيوعية والاتحاد السوفيتى ، وأن

أخطاء الغرب دفعتها الى العلاقة مع الاتحاد السوفيتى ، وبقدر ما كانت الأخطاء بقدر ما توثقت العلاقات ، ولو تفهم الغرب الثورة منذ البداية ، لما خرجت عن فلكه ، وهو حينما حاول ذلك بعدئذ كان الوقت قد فات واستطابت مصر اللعب على « الحبلين » ، وهذه صورة ساذجة ، وحينما بدأت الثورة لم تكن شيوعية ولكنها لم تكن ضد الشيوعية أو الاتحاد السوفيتى أو قامت لهذا السبب ، وكان الشيوعيون والماركسيون ممثلين فى مجلس قيادة الثورة ، وفى اطار الحلف الوطنى الذى كان قائما ، وفى اطار برنامج الثورة المتفق عليه ٠

وقد كانت الثورة على وعى منذ البداية بالعالم الذى تواجهه ، وبتغيير موازين القوى بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان هناك القوتان الأساسيتان ـ الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ـ ولابد من اكتشاف موقفهما من القضية المصرية لتحديد السياسة ازائهما ٠

ورغم أن الاتحاد السوفيتى بادأ الثورة بالعداء وشخصها بأنها ديكتاتورية عسكرية بورجوازية يمينية ، الا أن ذلك لم يؤثر على ارادة الفهم الموضوعى للعالم وللقوة الجديدة « السوفيتية » ٠

وأرسلت الثورة الى الاتحاد السوفيتى سفيرا على أعلى مستوى ، وكان الأب الروحى لكثير من العسكريين الوطنيين ، وزميل من زملاء « أتاتورك » فى الثورة التركية ٠٠ وهو « عزيز المصرى » ٠٠

وأرسلت الثورة بعثات : دبلوماسية ـ عسكرية اقتصادية الى الاتحاد السوفيتى والى عدد من دول أوربا الشرقية وذلك لاكتشاف مواقف هذه الدول وامكانيات التعاون والتبادل معها ، والوعى بالعالم تراث قديم للحركة الوطنية المصرية ، وهو مفروض على مصر لأنها كانت دائما ميدانا لصراع دولى حاد ، ومنذ بداية

القرن التاسع عشر كانت محورا لصراع عنيف بين الدول الأوربية المختلفة ، وبينها وبين الامبراطورية العثمانية ثم بين الحركة الوطنية وبين هؤلاء جميعا ٠

وقد أصبح من أهم أسلحة ووسائل الحركة الوطنية المصرية الادراك الدقيق للموازين والمتناقضات الدولية ، وتوجيهها أو تسخيرها لصالح القضية المصرية ٠

وكان أول من أقام علاقات بين مصر وروسيا « القيصرية » هو الأمير المملوكى على بك الكبير الذى أراد الاستقلال بمصر عن الامبراطورية العثمانية فى القرن الثامن عشر ٠٠ وأرسل سفيرا الى بطرسبرج !

وقامت أول علاقات على نطاق حكومى فى عصر محمد على ، وجاءت بناء على طلب بعثة روسية كبيرة سياسية اقتصادية عسكرية ، وبحثت امكانيات التعاون المصرى الروسى ومشاركة روسيا فى مشاريع التنمية المصرية ٠٠ وقام عدد من الخبراء والاخصائيين فى البعثة بالطواف ودراسة انجازات مصر وما يمكن أن يقوموا به ٠٠ ولكن روسيا القيصرية كانت مثل بريطانيا تخاف من قيام قوة كبرى جديدة بدل الامبراطورية المتهالكة ٠

ولم تثمر العلاقات وعادت البعثة ، ولكن بقى طبيب كبير منها أصبح الطبيب الخاص لمحمد على ومات ودفن فى مصر ٠

وبعد ذلك ببعض الوقت أراد الخديوى اسماعيل ، حفيد محمد على ، أن يبعث القوة العسكرية المصرية ، ولكى يتجنب الصراع الدولى الأوربى فى صفوف الجيش ، استقدم بعثة عسكرية أمريكية كبيرة من الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت الحدث الأول من نوعه ، ثم استقدم أيضا بعثة عسكرية أخرى من السويد ليوازن الوجود الأمريكى ويؤمن « القوات المسلحة » ٠

وخلال ثورة سنة ١٩١٩ كانت باريس مركزا حيويا لنشاط الحركه الوطنية المصرية ثم امتدت عبر الاطلنطي وأرسلت أحد أقطابها الى واشنطن ليشرح للرأى العام الأمريكى تفاصيل القضية المصرية ..

وبعد قيام أول حكومة وطنية مصرية سنة ١٩٢٤ أرادت الحكومة الاعتراف بالنظام الجديد فى روسيا وبالدولة السوفيتية ، وافتتح بالفعل تمثيل تجارى سوفيتى ، ولكن تدخلت السلطة البريطانية وطردت الممثل التجارى وحرمت اقامة أى علاقة بغير اكتراث بالسيادة المصرية .

وقد أعيدت العلاقات مع الاتحاد السوفيتى خلال الحرب العالمية الثانية ، وبناء على طلب بريطانيا ، بعد قيام « المحالفة الكبرى » مع روسيا وأمريكا .. ووجدت الانتصارات الروسية صداها فى مصر ، وثار اهتمام كبير بالتجربة السوفيتية ، خاصة بين الجيل الجديد ، الذى كان يتابع أحداث الحرب وتطوراتها .

وحينما اشتد الخلاف بين مصر وبريطانيا بعد الحرب ، ورفعت مصر القضية الى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، وقف الاتحاد السوفيتى ومندوبه الدائم « جروميكو » موقف التأييد التام لمصر ، وكان فاتحة المواقف والعلاقات بين البلدين .

وحينما تفاقم الخلاف مع بريطانيا وبلغ ذروته سنة ١٩٥١ ودعا الوفد الشعب المصرى الى الكفاح المسلح لاستخلاص حقوقه بدأ التفكير فى روسيا وفى الحصول على السلاح من روسيا .

وفى يناير سنة ١٩٥٢ حاصرت الدبابات البريطانية محافظة الاسماعيلية ودمرتها وقتلت أكثر من خمسين جندى بوليس مصريا مسلحين ببنادق قديمة فى معركة « فدائية » ضد الاحتلال .

وانفجرت المظاهرات فى القاهرة ساخنة عارمة ·· وهتفت « السلاح من روسيا » ، واندفعت المظاهرات نحو رئاسة الوزراء ونحو السفارة السوفيتية فى القاهرة ·· تطالب بـ « السلاح من روسيا » ·

وحينما سأل جمال عبد الناصر السفير السوفيتى سولود عن « السلاح من روسيا » ، بعد غارة غزة الاسرائيلية ، وبعد مقتل عدد كبير من الجنود والضباط المصريين سنة ١٩٥٥ ·· كان يطرح سؤالا طرحته ارادة الجماهير من قبل ، وقد استجاب الاتحاد السوفيتى ، وتغير تاريخ المنطقة وانقلبت كل موازين القوى فيه ، ولكن العلاقات المصرية السوفيتية ظلت فى حدود الصفقة ولم تتسع وتنمو الا بعد مؤتمر باندونج ·

وفى مؤتمر باندونج اعترف المعسكر الاشتراكى ، الذى كانت تمثله الصين الشعبية ، اعترافا كاملا بالعالم الثالث وبأن العالم لم يعد مقسما الى معسكرين فقط أحدهما رأسمالى استعمارى والآخر اشتراكى ، ومن لم يكن مع الاشتراكيين فلابد وأن يكون ضدهم ومع الرأسماليين ، وكان هذا هو الخط السائد خلال عصر ستالين وأيدته الصين ·

واعترف المعسكر الاشتراكى بالقوة الجديدة « الثالثة » وبمكانها على المسرح الدولى المعاصر ، واعترف بحق دول هذا العالم الثالث فى تحقيق ثوراتها الوطنية الاجتماعية حسب طرقها الخاصة وواقعها وتراثها ، والذى قد يختلف تماما عن الطريق السوفيتى أو الصينى ·· أو اليوغسلافى ·· وأصبح العالم الثالث قوة متكافئة ـ سياسيا ـ مع القوة الأخرى الأعظم « الموازية » ·

وقد رفضت الولايات المتحدة على لسان دالاس الاعتراف بباندونج ونتائجه وأصر على مقولته بأن الحياد مناف للاخلاق ·· ولا حياد بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ·

وبعد باندونج بقليل عقد مؤتمر للشعوب الآسيوية والافريقية استمرارا لمؤتمر باندونج ، وكانت الدول والحكومات هى التى مثلت فيه ، ولكن مؤتمر الشعوب ضم أيضا حركات التحرير الاسيوية والافريقية ، وكانت مضطرمة محتدمة فى كثير من بلاد آسيا وافريقيا ‥ وتخوض معارك غير متكافئة ضد الدول « الاستعمارية » القديمة ، التى كانت متشبثة بمستعمراتها ، وكانت « الجزائر » نموذجها الصارخ ·

وقد مثل الاتحاد السوفيتى تمثيلا مباشرا فى هذا المؤتمر الذى كان المظاهرة السياسية الاولى من نوعها وأعلن فيه استعداده لتزويد دول العالم الثالث بكل المساعدات الاقتصادية والاستراتيجية التى تحتاجها لتحرير اقتصادها وتنميته أو لتجديد قواتها العسكرية وتدعيمها وذلك بدون أى شروط تمس سيادتها واستقلالها ·

وكانت دول العالم الثالث تعانى منذ استقلالها من اصرار الدول الأوربية على الاحتفاظ بمصالحها الاقتصادية أى الهياكل الاقتصادية القديمة ، بعد أن فقدت نفوذها السياسى ، وكانت تعانى من محاولة الولايات المتحدة الحلول محل الأوربيين ، أو مواجهة السوفيت وقصر التنمية فى العالم الثالث على الزراعة أو الصناعة الاستهلاكية ·

وكانت دول العالم الثالث تعانى أشد المعاناة من اصرار الغرب عامة ـ اوربا وأمريكا ـ على شرط الانضمام الى الأحلاف الغربية حتى تحصل على السلاح الذى تحتاجه لبناء قوات مسلحة حديثة ‥

وقد وجدت دول العالم الثالث فى السياسة السوفيتية الجديدة خلاصا من الحصار الاقتصادى والاستراتيجى الذى فرضه الغرب على « المستعمرات » السابقة ، وكانت مصر من بين دول العالم الثالث أشدها حاجة الى الآلات والأسلحة ، وقد كان « تصنيع

مصر وتسليحها » وتحرير اقتصاد مصر وبعث قوتها العسكرية ، هو حلم الوطنية المصرية « الكلاسيكى » ، وهو « محور » قيام الثورة ، وقد أصبح قضية حياة أو موت بعد « غارة غزة » وامتناع الغرب عن تزويد مصر بالسلاح ، بسبب رفضها حلف الشرق الأوسط ، ثم نظرية ايزنهاور ·· وبعد سحب تمويل السد العالى ، الذى تعلقت به كل الآمال لحل المشكلة الاجتماعية الشديدة الوطأة ، وكان استصلاح الأرض والتصنيع « المكثف » هما طريق مصر الوحيد للحل ··

وقد هز الاتحاد السوفيتى خيال كل الجماهير العربية بموقفه خلال حرب السويس ، واكتسب ثقة العرب باعلانه تعويض مصر عن الأسلحة التى فقدها خلال الحرب ثم اعلانه « المدوى » عن استعداده لبناء السد العالى ·

وقد أكدت حرب السويس ، ثم نظرية ايزنهاور ، حاجة مصر وحاجة العرب جميعا الى حليف استراتيجى يواجه الحلف الاسرائيلى الأوربى الأمريكى ·· وقد أكدت حرب السويس دور اسرائيل التاريخى كأداة استعمارية وقبضة الغرب الضاربة فى المنطقة ، وأكدت أن الأوربيين يريدون استعادة الشرق الأوسط بالقوة ·· وان الولايات المتحدة الأمريكية تريد الحلول محلهم ·· تريد تصفية النفوذ الأوربى القديم ، وطرد « الوجود » السوفيتى الجديد ، وتصفية الثورة العربية ·· ثم ملء كل هذا الفراغ وحدها بلا منازع ·

كانت المواجهة غير متكافئة ، ولابد للعرب من قوة دولية « موازية » تستطيع الاعتماد عليها ·· لا يمكن أن تكون سوى القوة السوفيتية ·

وقد قامت العلاقات مع هذا متكافئة ومن مركز قوة دائما ومهما كان التفاوت ، وقد كانت مصر هى قيادة العالم العربى

والثورة العربية احدى أهم ثورات العصر ، وكانت مصر طليعة وقيادة في العالم الاسيوى الافريقى ، وفى الجبهه الجديدة التى غيرت ميزان القوى فى العالم ٠٠ وكان عبد الناصر بشخصيته قيادة تاريخية عبقرية تمثل كل ثورة الشرق « المعاصرة » ، وكان الاتحاد السوفيتى يدرك هذا تماما ، ويقدر تصرفاته وخطواته على هذا الأساس ٠

وقد كانت الثقة مطلقة فى أن مصر اذا ما تسلحت وتمكنت من التصنيع وبنت القوة الذاتية لمصر ، فلن تستطيع قوة ما أن تمس سيادتها أو أن تهيمن عليها ٠٠ وكان الاتحاد السوفيتى ـ لا شك ـ يدرك أن مصر التى تخوض كل هذه المعارك وتواجه كل هذه التحديات من أجل استقلالها لا يمكن أن تستبدله بأى تبعية أو هيمنة من أى نوع كانت ٠

وقد كان التعاون مع الاتحاد السوفيتى يتم فى اطار مبادىء معينة محددة هى التى قامت عليها الثورة العربية وزعامة عبد الناصر ، وهى تحرير العالم العربى ، وتغييره وتوحيده ، وأن تقوم القوة العربية الكبرى التى تصادق وتحالف أو تتحدى وتواجه من مركز قوة ٠

وحينما خرج الاتحاد السوفيتى على هذا الأساس بعد ثورة العراق سنة ١٩٥٨ ، لم يتردد عبد الناصر فى مواجهته ، وحينما خرج الشيوعيون العراقيون والسوريون عن هذا الاطار فى معركة « مصيرية » لم تقم لهم قائمة بعدها ٠

وقد أدرك الاتحاد السوفيتى خطأ تقديره وانحاز فى النهاية الى عبد الناصر وأدرك أن القومية العربية « الاشتراكية » هى التيار السائد والحاسم فى العالم العربى ولزمن طويل قادم ٠

وقد كان عبد الناصر يعتقد أن الخلافات مع الاتحاد السوفيتى ليست تناقضا اساسيا أو عدائيا ، ولكن اختلاف فى

الرؤية ويمكن أن يحل بالحوار ، وكان يعتقد أن المواجهة مع الشيوعية ليست حربا طبقية ولكن منافسة سياسية اجتماعية تحل بتقديم الحول « الاشتراكية » والقومية الأفضل ٠

وكان عبد الناصر هو الذى غير المفاهيم الايديولوجية السوفيتية والخط « السوفيتى » نحو العالم الثالث والاعتراف بطريق تطور ونمو جديد سماه المفسرون السوفيت الطريق « غير الرأسمالى » الى الاشتراكية ، وقد كان هناك طريقان لا ثالث لهما للنمو هما الطريق الرأسمالى و « الطريق الاشتراكى » (الماركسى اللينينى) وان الثورات الوطنية بعد أن تحقق الاستقلال وتصفى الاقطاع لابد وأن تنتهى الى الرأسمالية ، وعلى الأحزاب الشيوعية أن تنتزع السلطة لتحقق الاشتراكية ٠

واثبتت التجربة الثورية « الناصرية » أن الاشتراكية تتحقق عبر طريق ثالث ، وليس ضرورة بقيادة الشيوعيين ، واعترف الاتحاد السوفيتى بأهلية « الديمقراطيين الثوريين » لتحقيق الاشتراكية وان على الشيوعيين الانضمام اليهم ، وليس قيادتهم فى المسيرة ٠

وقد أثار هذا التحول اكبر قدر من الجدل فى المعسكر الاشتراكى ، وكان أحد أسباب الخلاف الصينى السوفيتى ٠

ولهذا لا يمكن أن يقال ان عبد الناصر قد انحاز الى السوفيت أو اندفع الى أحضانهم ، أو أرغم على هذا ، وعدم الانحياز ليس الجمودوليس الانعزال ، ولكن الحق والحرية فى تأييد أى قضية واتخاذ أى موقف يتفق مع المبادىء والمصالح القومية ، وليس خطأ مصر أن مواقف الاتحاد السوفيتى كانت دائما تتفق مع هذا ، ولم يكن ممكنا لعبد الناصر ـ ارضاء للغرب ـ أن يتجاهل هذه المواقف أو يرفضها ٠

عبد الناصر فى ذمة التاريخ

أعلن نظام السادات فى مصر لدى قيامه أن الثورة مستمرة ، وأن ليس له سياسة غير « السير على طريق جمال عبد الناصر » ، وقد ترك عبد الناصر مبادىء وسياسات واضحة ومحددة المعالم ، وترك ما يثبت صحتها وأهليتها ، وكان السير فى هذا الطريق يعنى استخلاص الدروس والمضى الى أبعد مدى بالانجازات والايجابيات ٠

ولم يدع أحد أن عبد الناصر أو أن عصره كان معصوما ، وانتصاراته الكثيرة لابد أن تصحبها هزائم وأخطاء كبيرة ٠٠ وقد عاش عبد الناصر وكافح فى جو عاصف متلاطم ، وواجه أشد التحديات ومحيطا من التناقضات ٠٠ كان السير على طريق عبد الناصر يعنى تقييما نقديا موضوعيا لعصر لا شك انه أخصب فترة فى تاريخ مصر الحديث ، وكان يعنى اقامة حوار عام « ايجابى » تتجادل فيه كل القوى الوطنية والديمقراطية حول سلبيات وايجابيات العصر ٠٠ وحول أساليب استمرار الثورة ، وقد خلف عبد الناصر تناسقا وتعايشا بين هذه القوى واتفاقا على كل الأسس ٠

ولم يحدث شىء من هذا ، وعلى العكس تماما ، استبعد الحوار ، وانطلقت حملة مجنونة محمومة على عبد الناصر ، حمل لواءها نفاية كل الطبقات المخلوعة والموتورة ، وتجردت من كل القيم والمبادىء ، وبديهيات الأخلاق ، وكان الأدهى أن باركتها كل أجهزة الاعلام والتوعية والتثقيف ، ولعل أحدا من زعماء العصر أو « صناع التاريخ » لم يلق من خلفائه ورفاقه حملة « بربرية » مثل الحملة التى شنت على جمال عبد الناصر وامتدت الى الشعب المصرى كله ، لتجرده من فضائله ، ومن صفحة مجيدة من تراثه ٠

ولو كانت الحملة اقتصرت على « التنديد » مع استمرار المبادىء والسياسيات ، وذلك كما فعل خروتشوف مع ستالين ، وهو المثل الذى يورده المستر روبرت ستيفنس لكان الأمر مختلفا ، ولكن الحملة كانت مقدمة وذريعة لنقض كل السياسات والرجوع عنهـا ٠

وقد أصبح عبد الناصر بعد الحملة « شخصا غير مرغوب فيه » فى تاريخ مصر ، ويحرم حتى ذكر اسمه أو عصره أو سيرته ٠٠ الا اذا تعلق الأمر بخطاياه وأخطائه ٠٠ وأصبحت مصر فى عصر عبد الناصر معتقلا كبيرا للابرياء ، وربما للمصريين جميعـا ، يسامون فيه القهر وسوء العذاب ٠

وفى ظل هذه الحملة المتجنية الظالمة أعلن النظـام وتفاخر أنه يعيد الديمقراطية والحرية ٠

وقد كانت الديمقراطية محتومة فى مصر وكانت كل التغيرات والتطورات الأساسية تدفع حتما اليها ، ولكن الديمقراطية كانت تعنى تعميق وتطوير الديمقراطية الاشتراكية ولا تعنى الرجوع الى الديمقراطية « الليبرالية » التى أثبتت عجزها ٠٠ كانت الديمقراطية تعنى مزيدا من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وذلك لرد مزيد من الحقوق للاغلبية الشعبية ولتوطيد الأسس التى تقوم عليها الديمقراطية السياسية الصحيحة ٠

وكانت الديمقراطية تعنى التطـور بالتنظيـم « الاشتراكى » الواحد نحو نظام حزبى سليم فى اطار « الاشتراكية » وذلك لكى تقوم أحزاب حقيقية ذات مبادىء وبرامج ديمقراطية تقدمية وتمثل قوى وطبقات وطنية شعبية ، ويقدم كل منها حلولا وبدائل ، يقوم عليها الحوار ، ويجرى عليها الاحتكام الصحيح الى الشعب ، وقد

كانت مصر بتراثها وتجربتها مؤهلة لهذه الرحلة ، وكانت هذه هى الرؤية « الناصرية » ٠

ولكن انتهت الديمقراطية ، التى يزهو بها النظام ويمن بها دائما على الشعب المصرى ، الى حزب أغلبية « شكلى » يحتكر كل السلطة وكل المنابر ، ولا هم له الا « تسفيه » وحصار أحزاب وقوى المعارضة المحدودة التى لا تطالب بأكثر من حقها المشروع فى الممارسة ، وقد أصبح محرما ـ بعد استفتاء عام ـ مناقشة المسائل القومية « المصيرية » ، وذلك لأول مرة فى تاريخ « الديمقراطية » ، ولا تبقى سوى مناقشة القضايا « الصغيرة » ، وفى أضيق الحدود ٠

وهذه ليست ديمقراطية ليبرالية « بورجوازية » وليست ديمقراطية اشتراكية « شعبية » ، وهى مجرد اطار لاستعادة الطبقات الرأسمالية المالكة لسلطتها وثروتها ، ولحصار واحتواء القوى الديمقراطية والاشتراكية ٠

ولا نظن أن الأغلبية التى ما زالت محرومة والتى تفقد مكاسبها التى حصلت عليها من قبل ، هى التى تملك وتحكم ، كما كان مقدرا لها أن تفعل ٠٠ وحسب أبسط تعريف للديمقراطية ٠

أما السلام فهو « حلم » الانسانية كلها والعرب خاصة ، ولكنه لابد أن يعنى نهاية الصراعات والعداوات واستتباب الأمن والاستقرار وقيام علاقات الصداقة وحسن الجوار ٠

والسلام فى المنطقة لابد أن يبدأ أو ينتهى بحل صحيح للقضية الفلسطينية ، وباحترام اسرائيل ـ على الأقل ـ لقرارات الأمم المتحدة ، ولابد أن يعنى السلام والوئام بين الدول العربية نفسها وأن تقود مصر هذه المسيرة ، والسلام لا يمكن أن يعنى انسحاب مصر من القضية ، وأن يتداعى ويتمزق الكيان « العربى »

كله نتيجة لهذا الانسحاب ، وأن تظل القضية الفلسطينية أبعد ما تكون عن الحل ، وأن تزداد اسرائيل تعنتا وصلفا كما لم يحدث فى أى فترة أخرى ٠

ولا يمكن أن يتحقق السلام فى هذا العصر ـ وازاء عدو مثل اسرائيل ـ الا من مركز قوة ٠٠ قوة يمكن أن يعتمد عليها السلام وأن تحميه ٠٠ وقد توفرت هذه القوة لأول مرة بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وقلبت كل الموازين وغيرت التاريخ ، ولكن بددناها فى اكبر خطأ بل « خطيئة » سياسية ودبلوماسية فى تاريخنا ٠

وقد اعتمد انتصار اكتوبر أساسا على القوة الذاتية « المصرية » التى أعيد بناؤها منذ عام ١٩٦٧ ، وبكل العرق والدم والدموع ، وقد كان الانتصار محدودا وليس كاملا ، ولكنه كان « معجزة » وبطولة يمكن أن يكون بداية لمتاريخ ، ولكننا بددناه بلا ثمن ، وذلك باعلان أن هذه هى آخر الحروب ، وباعلان أننا كنا نحارب من أجل الغير ، وليس من أجل حريتنا وحقوقنا التى لا تتجزأ عن حرية وحقوق كل العرب ٠

ولم تصدر اسرائيل اعلانا « مشتركا » مماثلا ، بل سارعت منذ نهاية الحرب بمضاعفة تسليحها وقواتها حتى تستطيع أن تخوض الحرب القادمة بغير حاجة الى جسر جوى أمريكى ٠

وقمنا بعد نهاية الحرب بقليل ، وضد كل الاعتبارات والضرورات الاستراتيجية ، بفصم العلاقة مع السوفيت ، وهى التى كانت تضمن لنا المورد الوحيد الأساسى للسلاح المتطور الحديث ، وذلك قبل أن تحسم القضية وقبل أن نضمن مصدرا آخر موازيا للسلاح ٠

وقد استطعنا أن نحصل بعد طرد الخبراء السوفيت سنة ١٩٧٢ على سلاح متطور غير علم وفن الحرب الحديثة ، ومن قبل

استطعنا أن نحصل على السلاح من السوفيت بعد حرب سنة ١٩٥٦ واستطعنا أن نحصل عليه بعد حرب ١٩٦٧ ، ولم يكن معقولا أن لا نحصل عليه بعد الانتصار « المدوى » الذى حققته هذه الأسلحة فى حرب ١٩٧٣ ٠

وقد نقضنا بعد الحرب مباشرة الحلف العربى الذى تحقق لأول مرة ، وكان أكبر عرض للقوة العربية الظاهرة والكامنة ، ولقدرة كل العرب ٠٠ راديكاليين ومحافظين ٠٠ على التحالف والتعايش نحو هدف قومى واحد ٠٠ وبدأنا بذلك بنقض الحلف العسكرى السياسى مع سوريا ٠٠ وهو المحور الذى التفت حوله كل القوى والذى كسب الحرب ٠

وقد تخلينا بسرعة عن السلاح الجديد الحاسم والذى هز العالم ، وهو سلاح البترول ، وذلك قبل أن يحقق كل امكانياته ، وكان غريبا أن تكون مصر أول من يطالب دول البترول المحافظة بالغاء هذا السلاح ٠

وقد أعرضنا عن كل القوى التى أيدتنا أو التى تحولت الى صفنا ، وتجاهلنا كل التحولات « الجذرية » فى الموازين والقوى الدولية التى حققها « انتصارنا » وأدرنا ظهورنا الى السوفيت حلفائنا ، والى الأوربيين الذين أدركوا ـ لأول مرة ـ إرتباط مصالحهم ومصيرهم بقضيتنا ، والأفريقيين الذين انحازوا تماما الينا ، ورفضنا أن نسخر كل هذه القوى فى صالحنا وأن نعمق مواقفها ٠٠ وخرجنا باعلان أدهش العالم كلة وأن ٩٩٫٥٪ من حل القضية فى يد الولايات المتحدة الأمريكية ٠

وقبل أن تبرد المدافع أو تجف الدماء دعى نيكسون وكيسنجر الى القاهرة لاعلان الثقة بهما ، وبايداع القضية فى أيديهما ٠

وكان الاثنان هما اللذان أنقذا اسرائيل وبعثا لها بالأسلحة « الرهيبة » التى لم يحصل عليها الأوربيون فى حلف الاطلنطى ، بل وأعلنا التأهب للحرب الذرية من أجلها •

وكان كيسنجر أشد الناس سخرية بمصر والنظام القائم بها ، وأصر ، حتى بعد طرد الخبراء السوفيت •• وكان أهم مطالبه ، على ضرورة المفاوضات المباشرة ، وكان كيسنجر هو الذى أعلن ـ بمجرد نهاية الحرب ـ أن « المهمة العاجلة والملحة هى القضاء على الجبهة العربية المتحدة » ، وأعلن أيضا الى جولدا مائير « أننى سأقوم بأعظم عمل يؤمن اسرائيل •• اننى أخرج مصر من المعركة » ، والذى أعلن أخيرا فى مؤتمر يهودى فى أمريكا « لقد كنا نريد هزيمة مكتسحة ساحقة للعرب وليس صحيحا أننا كنا نريد نتيجة لا غالب فيها ولا مغلوب » •

وحينما تأكد لنا أن الولايات المتحدة لا تملك القوة « السحرية » التى نسبناها اليها ، أو لا تريد أن تمارسها ، قمنا بالقفزة اللامعقولة الى « القدس » •

ولا يصنع التاريخ بمثل هذه « القفزات » ، وكان لابد ، على الأقل ، أن يسبقها دبلوماسية مكثفة ، كما فعل كيسنجر مثلا قبل الاعتراف بالصين ، وكان طبيعيا أن تنتهى الى الاتفاقات المبتورة التى أجمع العالم على بلوغها الطريق المسدود ، وهى اتفاقيات كامب ديفيد •

ولم يتقدم حل القضية « الجوهرية » الفلسطينية خطوة واحدة بل ان اسرائيل لم تكن فى وقت من الأوقات أشد عنفا وصلفا مما هى عليه الآن ، وقد حققت أكبر نصر لها بعد حرب أكتوبر ، وليس خلالها ، وذلك بتفتيت القوة العربية الذى وصل الى أقصى مداه بعد كامب ديفيد ، وقد زادت من قوتها العسكرية بحيث أصبح بعض معلقيها يتباهون بأنها القوة العسكرية « الثالثة » فى العالم بنسبة عدد السكان •

وبعد اعلان السياسات الأمريكية الجديدة والتى بدأت بنظرية كارتر ٠٠ وانتهت الى مشاريع ريجان وهيج ، بالعودة الى الحرب الباردة وتحقيق الوجود العسكرى فى الشرق الأوسط ، والى أقصى مدى ، لمواجهة الاتحاد السوفيتي ، كان لابد أن تحتل اسرائيل المكان الأول فى هذه السياسات وأن تجدد وتؤكد دورها التقليدى وأن تتقاضى ثمنه غاليا ٠

وتصر الحكومة القائمة فى اسرائيل ، وهى حكومة « بيجين » ، أن الأراضى المحتلة جزء من أرض الميعاد وقد تملكتها اسرائيل بتفويض الهى ولا يمكن أن تتنازل عنها ، وأقصى ما تمنحه هو حكم « محلى » محدود للفلسطينيين ، وتختلف المعارضة فى اسرائيل عن الحكومة فى أنها تريد أن تعيد «أجزاء » من الأراضى المحتلة الى الأردن ، على أن تبقى اسرائيل عسكريا فى المواقع التى تحددها ضرورية لأمنها ٠٠ وهو أمن بلا حدود ٠٠ ويتفق الاثنان على الرفض القاطع لقيام أى حكومة فلسطينية فى جزء من أرض فلسطين ، وعلى أن القدس عاصمة موحدة لاسرائيل ، ثم على رفض شرعية منظمة التحرير ٠٠ لأنها ارهابية لا تعترف باسرائيل ٠

وقد أعلن النظام فى البداية أنه يسعى للسلام « بأى ثمن » لأن هذا هو الطريق الوحيد الى الرخاء وهو الهدف النهائى الكبير ٠٠ وأعلن أن المعاناة كانت تعود للانفاق العسكرى « الباهظ » والذى استنفد مواردنا ٠٠ وان أصحاب القضية الذين حاربنا لحسابهم لم يردوا الجميل ، وقد آن الأوان أن نوفر المال والأرواح وأن ننصب على مشاكلنا وداخلنا لنحقق الرفاهية للجميع ٠

ولكن ما حدث كان مختلفا تماما ، ولم نوفر الانفاق العسكرى ولكن زدناه ٠٠ ولم نحول « القوات » الى المصانع والمزارع ولكن ابقيناها ، وكل ما حدث أننا غيرنا « اتجاه المدافع » وبدلا من العدو الذى ما زال يحتل اراضى عربية ، ويقتل ارواحا عربية كل

يوم ، ويهدر حقوق وكرامة العرب ·· نصوبها الان فى اتجـاه احر ولنصبح طرفا « صغيرا » فى الحرب الباردة التى قامت كل سياساتنا ومبادئنا على أن لا نتورط فيها وأن نستدرج اليها ·

وقد أعلنا مفتاحا سـحريا للرخاء هو « الانفتـاح » وهو تسمية « مغلوطة » ومصطنعة ، لاننا لم ننغلق يوما عن العـالم بشهادة المشاريع الصناعية والزراعية القائمة التى ما زالت فى مصر ·· وقد كان « انفتاحا » انتاجيا متوازيا على كل القوى « والأسواق » فى العالم وتوزع بنسبة تضمن لنا دائما حماية الاستقلال وزيادة الانتاج وتنوع الخبـرة ·· وكان الثلث على المعسكر الشرقى والثلث على المعسكر الغربى والباقى على العالم الثالث ·· وكنا طرفا أساسيا فى دعوة هذا العالم الأخير لتعديل النظام العالمى « المستغل » واقامة نظام اقتصادى عالمى جديد بدلا من النظام « الاستعمارى » الذى ما زال متشبثا بالبقاء ·

ولكن الانفتاح القائم الآن ، يعنى انفتاحا فى اتجاه واحد ، وعلى عالم واحد هو « العالم الرأسمالى » وحده ، وانغلاقا عن أى عالم آخر ·

ونحن ننفتح على العالم الرأسمالى ، فى وقت يمر فيه هذا العالم بأكبر أزمة أو محنة فى تاريخه المعاصر ، وهو لا يجد حلا لمشاكله المتفاقمة كل يوم ، ويريد أن يصدرها الى خارج بلاده ، وخاصة الى الشرق الأوسط ، وتنتقل الينا لهذا كل مشاكله الثقيلة لتزيد اقتصادنا تعثرا وعجزا ·

ونحن ننغلق تماما ونفصم علاقاتنا مع السـوق الـكبرى الموازية ، وهى المعسكر الاشتراكى ، وذلك فى الوقت الذى أصبح فيه القوة الاقتصادية الثانية فى العالم ، والتى توفر أفضل الشروط للبلاد النامية ، والتى حصلنا منها ، نحن ، على ما أقمنا به أهم المنشآت والمؤسسات الاقتصادية والصناعية ، ونحن نغلق انفسنا

عن هذا السوق في الوقت الذى تنفتح الدول الرأسمالية الكبرى عليه ، بل وترى فيه مخرجا رئيسيا لمشاكلها ، ويتنافس أشد المنافسة عليه الأوربيون الذين يبلغ حجم تبادلاتهم التجارية معه عشرات البلايين من الدولارات أو اليابانيون أو الأمريكيون الذين تعثر دخلهم الزراعى بعد أن تسرعوا وأوقفوا بيع القمح لهم ٠

وقد أغلقنا أنفسنا عن « العالم الثالث » وعن الاستراتيجية الاقتصادية الكبرى التى كنا نتقدم صفوفها ، من تحويل هذا العالم من ميادين استثمار واستغلال للمصالح الرأسمالية والاحتكارات المتعددة الجنسية ومن أحواش خلفية للقوى الكبرى تستنزفها لبناء قوتها ورخائها الى قوة كبرى تحقق الرخاء والرغد لشعوبها ٠

وفى النهاية أغلقنا أنفسنا عن أقرب عالم الينا ، وهو العالم العربى ، والذى أصبح أكبر قوة « مالية » فى العالم الآن ، والذى يملك من الموارد والمواهب ما يستطيع أن يبنى رخاء عاما ورفاهية للعرب جميعا ٠

وبدلا من أن يكون « الانفتاح » فى خدمة الاقتصاد المصرى حدث العكس ووضعنا الاقتصاد المصرى فى خدمة هذا « الانفتاح » المغلوط ، وأصبح يعنى اعادة الرأسمالية الى مصر والحاقها بالسوق الراسمالى العالمى ٠

وقد كانت اعادة الرأسمالية تعنى احتواء التجربة الاشتراكية ومحاولة تصفية القطاع العام أو بيعه أو تحويله الى قطاع حكومى فى خدمة القطاع الخاص ٠٠ وكانت تعنى الرجوع الى طريق استنفد كل فرصة خلال التسع سنوات الأولى للثورة ، وكان يعنى أيضا الرجوع عن الطريق الوحيد الذى أثبت نجاحه بعد سنوات طويلة من التجربة والخطأ ، ومن المعاناة من كل تاريخ مصر ٠

والرأسمالية العالميــة حطمت كل محــاولات مصر للتنميــة « الرأسمالية » الحقيقية ٠٠ وأخيرا أصرت على تصفية التجربة الاشتراكية ٠٠ التجربة الوحيدة الناجحة فى تاريخ مصر ٠

ولم تكن الرأسمالية « العــائدة » هى الطبقــة ذات الرؤية الوطنيــة الاجتماعية التى تبنى اقتصــادا انتاجيــا ٠٠ ولم تكن الرأسمالية العالمية ، وهى تعرف أزمتها ، لتبنى اقتصادا وطنيا صناعيا زراعيا متكاملا فى مصر ٠٠ ولا ترى أكثر من سوق لفائض انتاجها أو لبعض الصناعات الاستهلاكية الحقيقيــة التى تســتغل الأيدى الرخيصة ٠٠ لهــذا قامت طبقــة من السماسرة والمستوردين والمهربين أصبحت تتربع على رأس الاقتصاد المصرى ونشأت طبقة طفيلية ، هى الطبقة السائدة الآن ، وبهذا يعــود الاقتصاد المصرى الى مرحلة ما قبل الثورة ٠

ولم تكن المشكلة الاقتصادية فى يوم من الأيام أشــد منها فى مصر الآن ، ولم تكن الفروق الطبقية شاسعة ظالمــة كما هو الآن ، وذلك باعتراف المعلقين الغربيين ، بينما يصر النظام أن مصر تعيش أروع سنى تاريخها ٠

وعلينا أن ننتظر لنعرف ماذا سيكون حكم التاريخ أيضا ! ٠

رقم الايداع بدار الكتب ٨٢/٤٧٠٨

دار ماجد للطباعة
[illegible] بلال ـ القصيرين ـ الوايلي ـ القاهرة

يظل الحوار حول عبد الناصر مستمرا ولن ينقطع طالما بقى للعرب تاريخ .. أو أبطال ، وهو ليس حواراً حول الفرد أو شخص البطل فحسب ، ولكن حول الحلم الناصرى العظيم .. وكيف أبدعه وعاش ومات ليحققه ...

مصر العربية ...

مصر الديمقراطيه ...

مصر الاشتراكية ...

مصر العلمانية ...

مصر غير المنحازة ...

مصر قائدة الثورة العربية ورائدة الثورة الآسيوية ... الافريقية ، وقاعدة أمامية للحرية والاشتراكية والحضارة الانسانية ...

وقد اجتاز الحلم "كل الامتحانات والمحن ، الممكنة منها والمستحيلة وخرج فى النهاية "الرؤية" الوحيدة الصحيحة والتى ليس لها بديل

الموقف العربى



